

عميد خان نويس

خادمك و المليونير

الرفقاء

إلى من عاشوا في عالم هذه القصة ، أو في عالم شبيه به ،
علّهم يجدون فيها صدى لأحاسيسهم ومشاعرهم ؟

عثمانه نوريه

تقديمه

بقلم حضرة صاحب المعالي ، الكاتب الكبير ، الأستاذ
إبراهيم دسوقي أباطه باشا ، وزير المواصلات

القصة في الأدب الغربي إحدى دعائمه ، وكثيراً ما ارتفع
شأن لغة من اللغات بقصة وضعها كاتب قدير فأحسن فيها
وأجاد .

فلا يكابر أحد في أن شكسبير رفع من شأن اللغة
الانجليزية ، وأن هيجو وكورنيل من المتقدمين ، ومارسيل
بريشو ويير لوتي من الحديثين ، رفعوا شأن الفرنسية ، وفي
اعتقادي أن شوقي برواية مجنون ليلى وكليوباترا رفع لغة
الضاد إلى السماء .

والرواية تحليل جميل ، أو شعر رصين ، أو عظة بليغة ،
أو هي جميعاً ، تفعل في النفس وتؤثر فيها خيراً من ألف
كتاب .

وفرق عظيم بين درس جاف في الأخلاق ، وبين قصة
تروى ، تتخللها العظات ، فتله منها وأنت لا تشعر بالمص
لثقل وطأة التحيص والبحث .

فلكتاب القصة من الأفرنج أكبر الفضل في تهذيب

النفوس ، والارتفاع بها إلى حيث يريدون أن يكون المجتمع
وذلك لعمري من أكبر الواجبات الوطنية .

والاستاذ عثمان كاتب موهوب . عرفته مرهف الحس ،
صادق الشعور ، دقيق التحليل ، يعرض صوراً من الحياة ،
يستعين فيها بعمق نظراته ، وشمو أفكاره ، وقوة فراسته ،
وعظيم قدرته على النقد وتحليل النفس .

وقد اطلعت على روايته هذه فوجدتها جديرة بالاعجاب ،
تجمع بين الجد والفكاهة في أسلوب ممتع جميل ، أرجو أن
يكون له بين قراء العربية خير أثر ؟

ابراهيم دسوقي أباظه

مايو سنة ١٩٤٥

الفهرس

صحيفة

٩	الفصل الأول : ليالى اليخت
٣٢	الثنانى : أربعون غاده
٤٦	الثالث : وحى الحذاء
٥٩	الرابع : حسين بخطب
٦٧	الخامس : ذات مساء
٨٣	السادس : ينبوع التعيم
٨٩	السابع : اعتدال الريح
٩٦	الثامن : ضحك الدنيا
١٠٥	التاسع : عود على اليخت
١١٦	العاشر : حيرة الشاعر
١٢٠	الحادى عشر : فكرة
١٢٤	الثانى عشر : ماذا فى الامر
١٢٨	الثالث عشر : من مصدر وثيق

الفصل الأول

ليالى البخت

عجب الشاعر بما سمع وأعاد البصر إلى صاحبه فرأى ما لم يكن قد رآه . فهذا المعنى الذى ترمز إليه عيناه لم يعد سرا غامضا . إنما هو البشاشة النفسية والنورانية القلبية اللتان تسعان كل شئ . وتصفحان عن كل شئ . وأنه الحسب العريق والحياة الناعمة قد أكسباه الشعور الرقيق والابتسامة الدائمة .

والسمن نفسه . هل كان إلا مظهرا من مظاهر النعمة وآية من آى السعة .

هل لى أن أتق بك ؟

قالها فى لهجة الاخلاص والحب فاستيقن الشاعر أنه قد تجاوز عن فارق الثروة والجاه وأراد أن يتخذ صاحبا فسرعان ما أجاب . لك أن تثق بى كل الثقة وأن تطمئن إلى أن أسرارك فى حصن حصين . ولست أزكى نفسى أيها الأخ ولكن كثيرا من كرام الناس يدعوتنى صديقا ممتازا — هم على حق فيما أرى فانى قد أنست إليك منذ لقيتك وتوسمت فيك الصديق الصدوق الذى يركن إليه ويعتمد عليه . وسأقص عليك اليوم ما حبسته عن أقرب الأهل وأقدم الصحاب . والواقع أن محمودا الشاعر كان فى غير ثوبه فإنه لم يكن

هكذا متزمتا متبلدا على الدوام كما كان في هذه الأيام يبدو
ولكنه رأى أن يعتصم بالحد الصارم والتوقر الحازم لما رأى
أن ميله الفطرى للدعابة والمرح قد أوقعه في مشا كل لاعداد لها
ولا يزال يلقي به كل يوم في عناء جديد فرأى أن يلوذ بالخذر
والسكون وأن يتحدى حكمه القرون فيثبت أن التطبع يغلب
الطبع الأصيل .

ولبت أياما وهو راض عن سكونه وحذره مغتبط بمضاه
عزيمته ونفاذ إرادته ضاحك من القول المأثور الذى تناقلته
السنة الضعفاء والمتخاذلين فانك لتراه جالسا إلى مكتبه ومن
حوله إخوانه يحبونه ويحاملونه وهو بينهم ساكن هادىء تشور
به النكتة فيكتبها وتغالبه فيبتلعها فيقبل عليه زميله هذا من
غرفة أخرى وعلى وجهه ابتسامة عريضة وفي مؤخرة عينه
بريق عجيب لقد جاء يرحب به ويسلم عليه ولكنه لم يدع
يده بعد المصافحة إلا بعد أن أوسعها لثما وتقبيلا ثم قدم نفسه
قائلا . أنا خدامك حسين كاتب القيودات جئت أشرف
بمعرفتك .

فأجاب محمود . بل أنه شرف عظيم لى . تفضل استرح
يا بك .

ولكن حسينا لم يتفضل ولم يسترح بل لبت واقفا يداعب
محمودا ومحمود يريد على دعابته بابتسامة من لا يريد الابتسام

وكادت لحاجة حسين في الدعابة والحاجة في التهريج أن تستدرجا محمودا إلى الدعابة وتستحفاه إلى المزاح لولا أن كان بينه وبين الدعابة والمزاح ظلال كثيفة من الآلام والاسقام عليه أن يجتازها إذا أراد إليهما سبيلا وهيهات لمن بلغ هذه الظلال أن ينال من السرور أيسر نصيب .

ومع ذلك فهو يلقي على صاحبه نظرة المستطلع التقرير ويأخذ في مجاملته ولكنه لا يحسن المجاملة التقليدية ولا يزال يعزى نفسه عن هذا النقص يقول شكسبير في يوليوس قيصر : أن الافراط في المجاملة دليل الرياء أما البساطة والثقة فلا رياء فيهما ولا خداع ، ولولا هذا النقص الذي يريد أن يراه كما لا لكان ذا شأن في حياة الوظائف ودوائر الموظفين . وهو يقارن بينه وبين صاحبه ويعجب من هذا التهاك على المجاملة والملق ومن تقبيل يده وما كان من الأولياء أو الصالحين .

ويحيره أكثر من ذلك ابتسامة في عين صاحبه تترقرق فيها معان شتى وتمتزج فيها لمحات وسمات متباينات يختلط فيها السرور والغبطة والخداع والنفاق وكان الذي يميل صاحبنا إلى اعتقاده أن عنصر الخداع هو أصح ما تفرسه من معان فقد كان إيمانه بما قرأ في شكسبير من علاقة بين فرط المجاملة وفرط الخداع لا يرقى إليه شك ولا تسمو إليه شبهة .

ويسترسل الحديث بين الصاحبين فيومض في عين حسين وهو يتسم معنى جديد فيه سمة التفاهة وجموع البلاهة .
وأن حسينا على ضخامته ورخاوته وطوله الفارع برغم السمن والرخاوة لصاحب دعاية ومزاح وصاحب قهقهة صاخبة يعقب بها على كل ما يقول أو يسمع وفي أثناء هذه القهقهة تنفخ وجنتاه وتلتمع عيناه في وميض عجيب .

ويهم بالانصراف بعد حديث السلام ويمد محمود يده اليه مسلما فيقبلها وينصرف مشكورا . ويخرج حسين ويبقى ما أشاع في الحجرة من ضحك صاحب اشترك فيه الجميع إلا صاحبنا المتأمل الواجم . لم تحفزهم إلى الضحك دعاية رائعة أو فكاهة بارعة ولكنه ضحك حسين واصطخابة برغم تفاهة أسبابه قد حملهم على المشاركة في الضحك والتهرج .

ولكن هل استطاع هذا المصطخب أن يحمل محمودا على الدعاية والتفكه ؟ كلا فان للدعاية عليه من الأيادي مالا سبيل إلى نسيانه .

وهل ينسى هذا الاسم الذي أطلقه على (سميربك التابعي) مدير القسم على سبيل الدعاية فسرعان ما تسمع به المدير لا عطلا من خيال ولا خلوا من شرح وتأويل . لقد سماه (أبا التوابع والزوابع) تأثرا باسم كتاب لأديب أندلسي . ولم يكن يقصد غير الدعاية .

أما أبناء الحلال فقد فهموا ما يضرر وتكشفت لهم هذه التسمية عن معان جمة فالتوابع هم أصفياء المدير وأتباعه يهتمهم محمود بالسعاية والوشاية وإلا فلم أطلق عليه (أبا التوابع) وما مزيته على زملائه من المديرين والرؤساء حتى يختص دونهم بهذا اللقب ؟ أنها وقاحة وكنود .

ثم هو يتهم على رئيسه ويسميه (أبا الزوابع) فهل كان شديدا عليه بغير الحق ؟ فانما هكذا يكون الرؤساء وهكذا يكون البطش بالخبثاء الملاءمين .

ووجد هذا التفسير سبيله إلى قلب المدير فاسى واسف ولم يلم إلا نفسه فهو الذى رقاہ رئيسا لقلم بالاسكندرية . متوسما فيه الكفاءة مخدوعا بما أبدى من طيبة وإخلاص وما دار بخلد أنه يهزأ به ويتهم عليه ويتهمه أشنع النهم ويقول أن له توابع وزوابع .

ومحمود الشاب المرح الطروب برغم كل ما يبدو عليه الآن من تزمت وجمود لا يدري أن للتسمية مدلولاً لأنه لم يقصد إلى دلالة ولم يرمز إلى معنى ولا علم ببراعة المفسرين فى القرن العشرين . فانما هو اسم لشخص أعاد إلى ذاكرته اسم كتاب ووجد فى التسمية بعض الطرافة . ولم يشعر بأنها قد حمت من المعنى ما لا يريد إلا بعد أن نفذ السهم وأعيد إلى الديوان العام كاتباً كما كان قبل الترقية وسحبت منه النعمة التى

لم يقدرها ولم يعرف جميل صانعها .

ومع ذلك فهل انتهى الحادث بسلام عندهذا الحد ، ؟ كلا
فقد كان له توابع وزوابع لا محل لها الآن فقد طغى
عليها وعلى هواجسها في هذه اللحظات ذلك الوجه الكبير
المتنفخ وهاتان العينان - الباسمتان تحيرانه وتغريانه بالدعابة
والمزاح ... ولكن أما يزال صاحب عزم ومضاء . وهل
تغلبه أكذوبة الضعفاء والمتخاذلين .

يا عجبا : هذا المسلك العجيب في التحية والسلام ما دلالة
وهذا التهافت على مرضاة زميل لا يضر ولا ينفع ترى ماذا
يكون لرئيس يضر وينفع .

جالت هذه الخواطر وأشباهاها في ذهن محمود ولكن
المشاغل لم تمهله طويلا في هذه التأملات فسرعان ما طواه
العمل واستأثر به فاذا هو يضطرب فيما يضطرب فيه الموظفون
من عمل آلى لا ينتهى إلى أمد ولا يقف عند حد .

وتدق الساعة دقتين فينصرف الموظفون وينصرف محمود
وهو يفكر في أمر صاحبه وفي قدرته على اصطناع التزمت
والوقار وفي توفيقه هكذا في أبدال خلق بخلق ومزاج بمزاج
وليس هذا من هين الأمور .

وما يكاد يمضى في الطريق بضع خطوات حتى يدهمه
حسين كأنما كان يترصده إلى أين يا أستاذ ؟

إلى المطعم تناول الغداء .

وهل لديك ما تمنعك من اصطحابي ؟

كلا فانه شرف عظيم لى يا حسين بك .

وأين تناول طعامك ؟

فى مطعم (كذا) قرب ميدان الملكة فريدة .

توافقى عجيب فى الآذواق . لقد كنت ذاهبا إلى نفس

المكان فلننتظر الترام .

وطال انتظارهما لترام نبيل أصبل لم يفرد أقبال الزمن

بازدراء — المحطات الاختيارية والسكن على غير جدوى فقد

كانت مركبات الترام تشرق من أمامهما وتدعهما فى غير

رحمة يحترقان تحت وهج الشمس ويحتقان بريح السموم

فما أبعد الفرق بين ترام الرمل وعطائه وبين هذه المركبات

والمحطات فى عاصمة الديار .

هنا نحن أولاء نرى الصديقين قد يشا بعد أن أعياهما

الانتظار وأمضيهما الحرفا فتخرج محمود أن يسيرا على الأقدام

كما كان يحب الفيلسوف روسو أن يفعل فسرعان ما وافقه

حسين وهو يقول . لم تشبه جان جاك روسو إلا فى هذا

واردفا بضحكة صاحبة أجاب عليها محمود بابتسامة شاحبة

وبدا يفهما حديث وهما يسيران .

حسين : أجبني فى صراحة يا أستاذ . هل أنت مستقيم ؟

محمود : طبعاً .

ليت شعري هل كان ينتظر جواباً غير هذا على سؤال
كهذا ؟

— ولكنه لا ييأس بل يعيد محاولته — بأستاذ كن
صريحاً فإنه لا يعقل أن شاباً موظفاً أعزب في القاهرة يكون
معصوماً .

— لم أدع العصمة ولكنني جديد في القاهرة كما تعلم .
— فأشرق وجهه وهو يقول . إذا لم تكن معصوماً في
سواها .

ولمحمود في هذه الأسئلة والاصرار عليها وفي أشرافه
وجه حسين لما أحسن بأنه أحمق لمح روحاً شريره فما هي إلا
أن يقول شيئاً حتى يكون لدى المدير في الصباح الباكر
موشى الحاشية ، منمق الديباجة هدية من المرموس الصديق إلى
الرئيس المصدق .

فعول على أن يمضي في الحذر إلى آخر مداه وإلا يتورط
في الاعتراف بشيء وعلى أن يشتري ولا يبيع كما يقول خبثاء
الموظفين فقال في رده على حسين . أن شدة الحياء كثيراً
ما تفسد طبيبات الحياة فتجعل المرم مستقيماً برغمه وأن كاد
بكره الاستقامة في قرارة نفسه .

فأجابه حسين . دعك من هذه السفسطة وتكلم في صراحة .

- أظنك تسلم معى أن الموظف الأعزب الذى يصطحب أمه أينما تنتقل لا تستغرب منه الاستقامة كل هذا الاستغراب .
- وماذا يحملك على اصطحابها .
- لا شيء غير إقبالى على الجد وأعراضى عن العبث .
- إذن قد اتفقنا على ألا نتفق .
- وحزن محمود لا نقطاع الحديث على هذا النحو وحرمانه من معرفة هذا السر الذى حبس عن أقدم الصحاب وأقرب الأهل .

ولماذا لا تتفق ؟

- لأنى أفسد أهل الأرض طرا وأنت مستقيم كما تقول .
- ولكنى مستقيم برغى كما ذكرت . مكره لا بطل . أو قصر ذيل كما يقولون فلو لا حياتى لما كنت أفسد أهل الأرض .
- إذن الأفكار متقاربة ؟

- تحت العجز والزيادة (مشيرا إلى نفسه ثم إلى حسين) وبدأت على حسين علامات الاطمئنان إلى صاحبه ولكنه أراد قبل أن يمضى فى تفصيل ما أجمل من أسرارها أن يستوضح بعض نواحي صاحبه ليطمئن إلى صدقه ومتانة خلقه .
- هل أنت أصيل ؟

- نوعا ما . فانا ابن أسرة متوسطة ولكنها إلى كرم الأصل أميل .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن أهلى من أوساط الناس . زراع وتجار
وموظفون

— أن لهجتك فى الحديث بأستاذ تنبىء . عن الصراحة
والصدق فأنت أهل للثقة . خدامك حسين أكبر موظفى
وزارة الأوقاف دخلا من غير الوظيفة . أن أعجبك
كلامى فصدقه وإلا فقلقه باحدى أذنيك وألقه من الأذن
الأخرى جدى لأبى كان محافظا للقاهرة وجدى لأمى كان
من وزراء تركيا وهنا أقبل عامل المطعم بألوان الطعام وقد
سمع آخر لفظة من حسين فالتفت إلى محمود وقال . حسين
بك جده كان وزيرا عندنا فى تركيا . أنا أيضا تركى ولنا أحب
حسين بك كثيرا . فتناولته حسين قطعة من ذوات الخمسة قروش
انصرف بها جذلا مسرورا وأقبل الصاحبان على الطعام إقبالا
مشكورا لم يتخلله إلا بعض نكات أراد بها حسين أن يزيل
عن صاحبه ما ألم به من خذى وعار لما وجد البون شاسعا
والشقة بعيدة بينه وبين صاحبه الذى لم يفهمه لأول وهلة وعلم
أنه ليس صاحب فزاسة كما كان يحب أن يخدع نفسه .

فقد حسب حسيننا دساسا وضيعا فاذا هو موسر نبيل
وحسبه من أهل الذلة والصغار فاذا هو من السادة الكبار .
ويعيد بصره إلى صاحبه كما مر بنا فيقرأ ومضنة عينيه

كانها كتاب مفتوح فهي سمة الخلق الكريم وسعة الفهم
للحياة والأحياء . ومضه لم يظلمها غناء ولا غام عليها هم .
وما تكاد لهفة محمود على الطعام تخف حتى تعاوده شهوة
الاستماع فيستدرج حسينا إلى الحديث ولكنه يحذر أن يبدى
تلها قد يوحى إلى حسين بالتحفظ . . لذا فانتا نراه برغم
تحرقه إلى معرفة هذا السر الذي حبس عن أقرب الأهل
وأقدم الصحب لا يتعجل حسينا بل أنه ليسمح للحديث أن
ينتقل بين السمك والأرز واللحم والشحم فقد كان محمود
كلها بالأولين من أثر مقامه بالاسكندرية وكان حسين مولعا
بالشحم واللحم ويرى ما دونهما لغوا وعثا .

ويتناول كوبا من الماء يشربه فيقول له حسين . مصوا
الماء مصا ولا تعبوه عبا فيشكره محمود على هذه النصيحة
الدعبيه وبعد باتباعها مستقبلا .

والآن إلى أين تذهب ؟ .

— أرى أن تذهب إلى حديقة الحيوان فالיום يوم
الأحد والحديقة اليوم أزهى ما تكون .

— هيا بنا

ويجدان تراما ويجلسان في غير جلبة ولا غناء فيقول
حسين بعد أن استويا في مقعد بالدرجة الأولى .

— سأنبئك الآن بقصة حياتي كما وعدتك . ولك

أذنان فاذا شئت أقيت من الثانية ما تلقيت بالأولى
لقد طردني والدائي وهما من عنت وأنا لم أزل في سن
العاشرة لأنى كنت شيطانا مريدا كلفا بالمخازى والمخاطر فلم
أنعم بما ينعم به أولاد - الذوات . ولا أزال حتى اليوم
أكابد مما كان فى مشرق شبابى ففى العام الماضى اضطررت
أن أبيع بختين بحريين وسيارتين فاخرتين .

— أكنت مدينا ؟

— كلا

— فلباذا إذن تعقد هذه الصفقات فى وقت لا أمان فيه
على النقد والعدو على الأبواب ؟

— يا سيدى إذا عرف السبب بطل العجب . هل بنا أن
نزل فقد بلغنا حديقة الحيوان واستأنف حديثه بعد أن جاوزنا
باب الحديقة وسارا بين الظلال الوارفة والطيور المغردة
الهاتفة وأسراب الغيد ومواكب الأطفال فى أثواب بهيجة
خلاصة الألوان .

طارت اليهما طفلة فى ثوب أبيض جميل وفى يدها
حبل قائمة .

— أمسك هذا الحبل كى أنط

— وما اسمك

— اسمى سوسو على درويش وبابا الدكتور على درويش .

— نحن نعرفك ونعرف أباك

— ما اسمه

— الدكتور على درويش

— حسنا هل هو يولد رجالا أم نساء

— رجالا

فصاحت في لهجة المتصر : دا بتاع ستات دا بتاع

ستات .

ولما استيأست منهما ذهبت إلى غيرها عله يمسك لها
الحبل . وكانت طفلة فاقنة مسلية . جعلت محمودا يسأل صاحبه
عند انصرافها .

— ألا تتزوج يا حسين حتى تنجب مثل هذه الطفلة ؟

— كلا فانا أكره السيدات . ولا أحت إلا العذارى في

سن الثانية عشرة — سن محكمة الجنايات .

— ولكنك لم تكمل قصة بيع البختين والسيارتين فما

السبب حتى يطل العجب .

— خدامك حسين الذي ترى أمامك مهملا في الزى

منصرفا عن التائق هو أقرب الناس إلى قلوب العذارى

وغازيها من أيسر السبل وأقربها . أنا لست مغرورا ولست

أكره مع ذلك أن أتهم بالغرور أصحبنى في إحدى جولاتك

فسترى البرهان . وليس الخبر كالعيان . لقد هامت بي يوما

فتاة شائقة من سلالة تركية وقد رأيتها أول مرة عند خالتي
بالزمالك وما كنت أجلس إلى الضيوف وأحييهم وأحادثهم
حتى وجدت أني أحظى من التفات غيبي واهتمامها بأوفر
نصيب .

وانصرف الضيوف ولبثت مع خالتي أتكلف السرور
بخلوتي بمن بقيت لنا من زمن مضى بعزه ومجده وقداسته .

ومرت أيام وإذا الساعى ينبشني أن فتاة تريد لقائي
فوجدتها هي باحما ودمها ولكنها تكابد أزمة نفسية وتعاني
هما دفينا . فسرت في أوصالي قشعريرة حبيبة ولكني تمالك
أن أقول لها . خير إن شاء الله .

فأجابت في لهجة عازمة ولكنها حائرة قاسية ولكنها
مشفقة .

أني غير مختارة فقد قضى على أن أعيش معك . ستقول
أني حمقاء وأنا أقول بل مجنونة لا حمقاء ولكن الزمام أفلت
من يدي .

فأراك . هل تكره أن أكون معك .

— من ذا يكره ولكن لكن للموقف أكثر من وجه
واحد فتدبري الأمر مليا .

فترقرقت دمعان في عينيها النجلاوين وبدت عليها حيرة
مريرة إلا ما أقسى قلوب الرجال وما أقدرهم على تمثيل دور

الغرام والهيام فاذا خدعت الفريسة ووقعت في الفخ فالويل لها من جفاف الطبع ونضوب العاطفة لقد كانت تتوقع أن لقاءها سيكون أسعد مفاجأة في حياتي . وأنها تزف لي الأحلام وما يجاوز الأحلام .

— تدبري ؟ ماذا تعني .

قالت لها حائرة فسالت الدمعتان وبدت في حزن فاتن واستأنفت — حديثها قائلة ، إذن أنت حر فما أطيق الحياة من غيرك . فما لبثت قواي أن خارت وما لبثت عزمي أن تصدع وأسليت أمري للقادير وقلت لها . شكراً يا فيفي . ستعيشين معي .

فأشرق وجهها ونطقت أساريره وقالت . شكراً يا حبيبي على هذه التضحية .

— أو تضحية هي ؟ أنها السعادة كل السعادة أن أنعم بقربك قلتها وأنا أرى نفسي في مأزق لا أعرف له أولاً من آخر .

في هذا الموقف الحرج كنت حازماً كل الحزم فاستدعيت سائق اليخت بالمسرة وطلبت إليه أن يبحر باليخت إلى قرب القناطر الخيرية . بعد أن يطرد الخفيرين فقبل بعد تردد . وأريته الفتاة وقلت له . وهذه الفتاة ستوافقك في مستقرك الجديد وستقيم معي فصن هذا السر واعلم أنه إذا علم شيء عنه

فالمسئولية واقعة عليك وحدك لأنه لا يعلمه غيرك وغيرى
وعندئذ ستدفع الثمن غاليا وأشرت إلى جيب كنت أحمل فيه
مسدسا .

— سرك محفوظ يا سعادة البك . وهل هذا أول سر
تأمنى عليه ؟

— كلا فسر على بركة الله .

وما كاد ميعاد العمل ينتهى حتى وجدتني فى سيارتى أنهب
الأرض إلى مستقر اليخت ولبثنا فى هذا المنعزل أربعة أعوام
وكانما جملتها الخلوة أو كأنما الماء والسماء قد أسبغا عليها شعراً
وفنا وجمالاً ورواء ومازادها تعاقب الأيام إلا تألفا وتآلفا
وقتة ونضارة .

وفى هذا المنعزل ، بعيداً عن ضوضاء المدينة وشرورها
وعن عذل العاذلين وكيد الكائدين ونصح الناصحين حينما كما
يشتهى المحبون أن يحبوا . . . فى جو من الحب الخالد يترجم
عنه خرير الماء وحنين الطير وحفيف الشجر تحت جلوة القمر
وفى كل يوم تنشر الصحف خبر اختفاء الفتاة فنعبه عبوراً
وكانه بهم قوما آخرين ليسوا فى هذه السماء الشماء والامتيار
الفائق على أهل الأرض .

لقد عشنا أربعة أعوام فى عالم الاحلام وكنا نستطيع
استبقاء النعيم واستدامة الحلم .

ولكن المرء إذا اكتملت له النعمى قشش جاهداً عن
الهموم كأنما لتضاعف حسرتة فيما بعد ولا يلومن إلا نفسه .
ففى العام الرابع من أعوام اليخت كنت إذا أقبلت على
غير انتظار فكفـكفت دموعها بسرعة وابتسمت ابتسامة
متكلفة فبدأت الشكوك تساورنى . هذه الدموع التى تنهر فى
غيبتى لمن يا ترى ؟

و ذات مساء قلت لها : لم يكن لأحدنا سر يحجبه عن
صاحبه فهل لى أن أسأل عن سر هذه الدموع ؟
تفضل فهذه الصحيفة تنبئك بسر الدموع .
فقرأت فى باب الاجتماعيات هذا النبأ . اعتكف اللواء
(فلان) باشا لمرض أصابه منذ يومين . ولا يزال العظام
والكبراء يزورونه للاطمئنان على صحته . ونحن نتمنى له شفاء
عاجلاً وإبلاً سريعاً .

لم يكن انهمار الدموع لغريم . إذاً كما كنت أخشى بل
لأب رحيم له على ابنته حقوق الأبوة على الأبناء
طمأننى هذا الخاطر شيئاً ما ولكن ما حيلتى فى المأزق
الجديد ؟ إنها لعازمة مصممة على أن تعود وتطمئن عليه
وبذلت جهد الجبابة لاثنيها عن عزمها وأبصرها بخطورة ما
هى مقدمة عليه ولكن حالتها النفسية لم تكن تسمح بتفاهم
أو اقتناع فهى مصممة عازمة كما عازمت وصممت منذ خمس

سنوات . حماقة لا تقف عند حد ونهور لا ينتهى إلى غاية .
قضى الأمر ولا بد أن تذهب أردت أو تكرهت ولكن
هذا سيكشف عن الجريمة وسيقتادنى إلى محكمة الجنايات وليمان
طره... شبهان تراءى لى من خلال هذا اليأس الذى غام على
خاطرى وأنا مسوق اليهما فى عاصفة هوجاء من الحماسة والنهور .
ولكن الشدائد هى محك الرجولة والقوة . والخطر العظيم
لا يدرأه إلا الخلق العظيم ففى وسط هذه الأنواء والعواصف
فكرت فى هدوء رزين ، فلم يلبث الضباب أن تبدد ، ولم تلبث
العاصفة أن هدأت وإذا هى تعود إلى آلهامها كما تشتهى وإذا بى
أتجنب المكارثة التى كانت تتمثل فى الشبهين المخيفين وعادت
وعدت وأسدل الستار على ليلالى اليخت ولكنها ظلمت فى حياتى
زادا روحيا استروح بذكره وأتغذى بخياله وزال الشبهان
وإن كان زوالهما إلى حين .

- ولكنك لم تحدثى بالطريقة التى سلكتها حتى نجوت
الطريقة كانت كما بلى : أوثقت رجلها وذراعيها بحبل
وعصبت عينيها وسرت بها إلى ضاحية نائية فى الغسق وهناك
فى مكان مهجور أنزلتها من السيارة فى رفق ومرقت فى سرعة
قلما أن اطمأنت إلى نجاتى واختفى صوت نفير السيارة صرخت
ضراخاً متصلاً فاذا هرع اليها الناس والشرطة قالت أنها بنت
اللواء (فلان) باشا اختطفت من مدة طويلة وعصبت

عيناها طول هذه المدة لذا فهمي لم تر أحداً ولا تعرف مع من كانت وما كدت أبلغ الجراح حتى وجدتني عائداً برغمي إلى هذه الضاحية لأشاهد ما فاتني من فصول هذه القصة ولأطمئن إلى إجابتها .

وهناك وجدتني ومن حولها بعض البوابين وضابط يسألها وهي تجيب والضابط مسرور بقراره بأن نجاة كريمة الباشا جاءت على يديه وبأنه كان صاحب البشرى إليه . فما يكاد يكمل المحضر حتى يدعوها للانتظار في غرفته ريثما يبلغ الخبر إلى سعادة الباشا . وما يكاد يبلغه حتى يطير إلى مقر البوليس وكان مرضه لم يكن عضالاً وكان بعض الأطباء لم يكونوا قد ينسوا من شفائه .

لقد أتى في سيارته وتعرف على ابنته فعاد معا في سليا وما هي إلا أسابيع حتى زفت إلى ضابط بالجيش من مروسى أبيها وأنت تعلم تهافت المروسين على مصاهرة الرؤساء . وهكذا انتهت معالم الجريمة ونجوت من الشبحين الرهيبيين ومضى عام وبعض عام وأنا في أمن ودعه وطمأنينة ممتعة . وأقبلت ذات صباح على الجراح فرأيت بياض فتاة تنتظر . عرفتها ولاكني، لا أعرف ماذا أتى بها إلى هذا المكان .

— سعيدة — خير إن شاء الله

— لقد مات زوجي

— البقية في حياتك ولكنك لست حزينة .
— لأول مرة في حياتي لم يحزني الموت كيف حالك — أنسيتنا
— وكيف أنساك ؟
— أنسيت ليالي اليخت ؟
— وهل تنسى ليالي اليخت ؟
— وما رأيك في تكرارها عودا على بدء .
فكرت وتدبرت وأقدمت ولكني لم ألبث أن أحجمت
فقد كنت في هذه الأيام أنعم الناس بالآ وأرفهم حالا
وكنت أعيد ليالي ألف ليلة مع أربعين من الغيد الفواتين .
وقلبي بطبيعته لا يعلق به حب وإن كان ينفشد المتعة أبدا
فكرت في هذه الفتاة الطائشة التي حملتني في المغامرة إلى
أبعد الحدود ثم تهورت واندفعت وكادت بتهورها واندفاعها
تحطم حياتي تحطيا لإصلاح بعده .
إنها تريد تكرار المأساة ولكن هيات ثم هيات
وهل كنت مجنونا حتى أكشف ما استتر وأنكأ ما التأم
فأجبتها قائلا : أمهيني ريثما أرتب حياتي وأعد عدي وفي
خلال هذا الشهر بيعت اليختين البحريين لأنهما تعرفهما وخشيت
أن تحتلها وتأتي معادرتهما فتكشف بحماقتها ما كان من أمر
المغامرة وبعث السيارتين كي تنقطع صلتني بالجراح ولا تعرف
لي مستقرا .

- ومسكنك ألا تعرفه . ؟
- كلا فليس لى مسكن ولكنى اتنقل بين فنادق القاهرة ولا يعلم أحد مستقرى .
- ومقر العمل — ألا تعرفه ؟
- لقد استخدمت دعاة من السعاة والبوابين والخدم أفهموها أنى نقلت إلى بور سعيد . ها هى ذى احدى مغامراتى فهل تقص علينا طرفا من مغامراتك .
- مغامراتى ؟ وهل لى مغامرات تستحق هذا الاسم أو أن تذكر بعد هذه المغامرة الكبرى التى تزرى بخيال الروائيين فى أعجب الروايات .
- حدثنى كما حدثتك أليس لك مغامرات .
- فيصغر محمود ويصغر سم يذوب خجلا أمام صديقه الذى هيا له المال والثراء سبيل المغامرة وفهم الحياة فيجيب .
- لو كان لى مغامرة لحدثتك بها ولكن هذا خفرا لى .
- فيبتسم حسين ابتسامة فيها الرضى والأمن والصفح والمغفرة ويقول لست أريد إحراجك أو حملك على ما لا تريد .
- ويبدو فى مؤخرة عينيه ذلك الوميض الذى حيره أول الأمر ولكنه لا يحيره الآن فهو البشاشة النفسية والنورانية القلبية اللتان تسعتان كل شىء وتصفحان عن كل شىء .

ثم قال حسين .

الساعة الآن السادسة وأنا مرتبط بموعد لزيارة أقارب
هنا في الدقي .

— إذن تفضل فأنا ذاهب إلى الفندق لاستريح شيئاً ما
ولكنك لم تحدثني بقصة الأربعين عادة .

— إلى فرصة أخرى إن شاء الله .

وهكذا ذهب محمود إلى الفندق وحيدا وهو يفكر في
هذا الصديق الذي ساقته إليه الظروف السعيدة . صديق
يشكو من تضخم النقد في خزائنه ولن يرض على صديقه
بقرض إذا أحوجته الظروف .

ولكن شينا خفيا جعل محمودا يرتاب فيما سمع ويحار بين
التصديق والتكذيب .

الفصل الثاني

أربعون عادة

وكان نقل محمود إلى القاهرة وعودته كاتباً كما كان مشيرة
لآلامه حتى رأيناه يعزم على تغيير خلقه وتبديل مزاجه
ولكن هذا النقل كان أول الغيث الذي يوشك أن ينهمر
لقد تساءل وهو في ألمه وضيقه كيف يصبر على غطسة
الرؤساء ودهائن الزملاء الذين يحيطون بالرئيس حتى
لا يدعون له عيناً يبصر بها ولا أذناً يسمع بها بل يكونون
أعينه وآذانه ، أعينا مغرصة وآذاناً مريية .

وإذا كان وهو الفقير إلى وجه الله تعالى يعجب كيف
يصبر على هذه الحال فما أحرأه أن يعجب كيف يصبر حسين
الملونير . إن هذه الوظائف الصغيرة قد خلقت للفقراء من
أمثالنا لا لأصحاب الثراء الواسع والجاه العريض .

ولكن لماذا ينظر إلى الناس من زاويته ووجهه نظرة
وطبيعة مزاجه فربما كان لحسين وجهه نظر في البقاء في هذه
الوظيفة الصغيرة والله في خلقه شئون . وبينها هذه الأفكار
توارد على ذهن محمود إذ أقبل الساعي يقول له .

تفضل كلم سعادة اليك .

وذهب وقابل سعادة اليك وعاد في يده ورقة حمراء .
يقال لها أمر خصم وتعجب إذ ترى محمودا رجل الجد والدأب
يعاقب لأهال أو تقصير فهو مجد دائما مقدر مسئوليته
أبدا محس بواجبه أعمق الاحساس مخلص لعمله أتم إخلاص
ولكن الاخلاص في القول والعمل لا يراه الرؤساء ويحسبون
اخلاصا ما هو غش وخداع ومجاملة كاذبة .

— ما سبب هذه العقوبة ؟

سأل رئيسه هذا السؤال فأجابه . أنك أخليت طرفك
من الاسكندرية يوم ١٥ ولم تتسلم عملك هنا إلا يوم ١٧
فأين كنت في يوم ١٦ .
— كنت هنا .

— أهذا صحيح ؟ ونادى احد الموظفين وسأله . هل

حضر محمود أفندى يوم ١٦

أنه حضر في يوم ١٦ في آخر النهار قبيل انتهاء موعد
العمل فاعتبر غائبا — وكان محمود يستطيع أن يجيب صادقا
بأنه كان يسلم عمله لخلفه حتى صبيحة هذا اليوم ولكنه
أحس بنفسه تضيق وصبره ينفد ولم يكن يجيد الرجاء
والاستعطاف . فلما قال له الرئيس على العموم لا فائدة
فالمسألة منتية وقد أمضيت بالعلم .

أجابه قائلا . أمر تافه على كل حال . يوم لا يهم
فقال الرئيس . تعيش وتأخذ غيره
ويقضى موعد العمل ويذهب إلى المطعم لتناول الغداء
وبعد أن يتناول طعامه يتفقد حافظة نقوده فلا يجدها .
فتبدو عليه الحيرة والاضطراب ثم يتجه إلى صاحب
المطعم وساعته في يده ويقول له : لقد نسيت حافظة نقودي
فتفضل هذه ساعتى أبقها عندك ريثما أحضر لك النقود .
فيجيب صاحب المطعم . آخذ الساعة ؟ عيب ! إن لنا
فراصة في الشخص حضرتك يبدو عليك أنك رجل محترم
صادق مؤدب .

— شكرا جزيلا

— مع ألف سلامة يا سعادة إليك .

لقد فهمه صاحب المطعم من نظرة عابرة
عرف الرجل أنه ليس صاحب خديعة واحتيال فقد
كان الصدق والبصراحة المهدبة علمين عليه تكاد تنطق بهما
ملاحظة .

ومر بخاطره حديث الرئيس اليه في غير لياقة ولا مجاملة
دون أن يفهم من تجارب طويلة ما فهم صاحب المطعم من
نظرة عابرة .

ذهب من توه الى صندوق التوفير وسحب مبلغا كان له

وعاد من توه الى المطعم فدفع ما عليه شاكرا
ولكنه في المساء يخشى مما أصابه . ترى هل أصابه مس ؟
لقد انطلق الى الشارع في ضيق وسخط عقب خلاف مع
عامل الفندق فاندفع الى حيث لا يعلم يطاوع رجله ولا تطاوعه
رجلاه . وخشى أن يستفحل الخطب فبذل جهدا جبارا حتى
استطاع أن يحمل نفسه الى متجر لبعض أصدقائه وهناك
جلس . وتحدث وضحك وكانت فكاهته بارعة وسخريته
لاذعة وكاد لا ينجو منهما شيء . وقع تحت حسه في هذه اللحظات
كان يظن من يراه أنه رجل المزاح والاستهتار الذي لم
يعرف جد الحياة ولا مرارة الهم . وكان من يراه في صدر
النهار يرى فيه الجاد المتزمت الذي استغلق عن الفكاهة والدعابة
وكل ما يطرب منه الناس مع هؤلاء الصحب ترك نفسه على
سجيتها فأعجب وأطرب وأزال عن نفسه ما غشى عليها من
ملل وسامة واستعاد سلطته على أوصاله وعاد التفاهم بينه وبين
جوارحه وساد الانسجام وتبددت الأوهام . وضحك أصحابه
ملء صدورهم وأفواههم ورجوه أن يوافيهم بين الآن والآخر
ليؤنسهم ويسليهم ويغذيهم من قلبه السعيد ونفسه المرحّة
إنه المحدث الذي يعجب الأصدقاء ولكنه لا يعجب الرؤساء
ليس متلصفا ولا فظا معهم ولكنه لا يلقاهم كثيرا لأنه
لا يهنا بلحظة يشعر فيها أنه يتلقى توجيهات وإرشادات لا حكمة

فيها ولا سداد وهو بعد لا يؤمن أن لرئيسه عليه واجب
المنادمة والترفية وهو بعد كل هذا شاب جم الحياء خاصة مع
من هو أكبر منه سناً أو مقاماً أو لكمة يبلغ ذروة سعادته وهو
بين أصدقائه الأقدمين يطلق النكات البارعات ويسعد من
حوله وهو لا يخشى دسا ولا سوء تأويل إنه لا يترامى على أقدام
الرئيس ولا يلقاه إلا في مناسبة عمل فكان الواشى يشى به وهو
مطمئن ويحدث من الجفوة بينه وبين الرئيس ما طوعته نفسه
على الدس والاختلاق ولم يحس أن زميلاً شاركه ألمه في هذا
الصباح إلا واحداً نصحه في جد وإذا كان لم يعمل بنصيحته
فقد قدر له كرم شعوره ورقيق مجاملته ذلك الزميل هو حسين
ويعود محمود إلى عمله في اليوم التالي وقد جلا قلبه وغسل
همه — ليسمع منه حديث الغيد الأربعين .

ولكن حسينا يقول له . لقد نقلت .

— إلى أين نقلوك ؟

قالها وهو يقدر أنهم نقلوه إلى بنها أو طنطا أو أسيوط
على أسوأ الفروض .

ولكن الرد كان ، إلى مكان ما بالاطلنطى .

— أو تهذى ؟

— أهذى — تفضل

وسلمه شهادة طبية ممهورة بإمضاء طبيب كبير قرأها

فعجب لما يقرأ .

أقرر أنى أجريت الكشف الطبى على حضرة حسين
أفندى مسعود فوجدت أن صحته جيدة وهى تسمح له بقيادة
وابور بخارى بحرى .

الدكتور . فلان

— مدهش ولماذا استخرجت هذه الشهادة .

— لأن المفوضية الأمريكية طلبتها منى استيفاء لأوراقى
لديها وتمهيداً لتعيينى رباناً لبعض السفن الأمريكية بالمحيط
الأطلسى ...

— لو أنى كنت أنا نيا لتنيت ألا يتم لك ما تريد . لأننا
لا نطبق بعدك ياسحس .

— أنا شاكر لك عواطفك نحو خدامك حسين الذى
سيظل خدامك فى كل زمان ومكان .

— عفوا . ولكن أين تعلت قيادة الوابورات ؟

— فى انجلترا لما كنت أدرس فن الطيران .

— وهل درست فن الطيران ؟

— نعم وكنت كبير المهندسين فى شركة الطيران الكبرى
بجنوب إفريقيا وهى شركة انجليزية وكان تحت امرتى مهندسو
الطيران من الانجليز فآتمر الجميع بى فتركت لهم العمل غير
أسف مفضلاً أن أخدم بلادى بملايم عن غيرها بملايين

وفي يوم الخميس الماضى قابلنى مدير الشركة بالقاهرة وقال
لى لقد اقتنعت بأنك كنت محقاً وكنا مبطلين فإن سقوط
طائرة عزيز المصرى باشا كان فصل الخطاب .

فقال محمود . وكيف كان ذلك ؟

فأجابه حسين : زعموا أن أصحاب الشركة لما رأوا حسينا
يأمر بأن تثر الطائرة أزياء طويلة وهى بعد على أرض المطار
حسبوا ذلك إسرافاً فى البنزين فرجوا منه الكف عن هذه
الخطئة اقتصادا للبنزين وعبثاً حاول أن يقنعهم بفساد فكرتهم
وبأن الطائرة إذا ارتفعت قبل أن تسخن آلاتها إلى درجة خاصة
كانت فى خطر من أن تنسد بعض أمانيتها فيؤدى هذا إلى
سقوط الطائرة وهذا هو الذى أدى إلى سقوط طائرة
عزيز المصرى .

وحاول المدير أن يعيد حسينا إلى خدمة الشركة وعرض
عليه شروطا سخية جدا ولكنه أصر على الرفض .
وأعجب حسين بنفسه وقد تحدث بهذه الذلافة والسهولة
فابتسم ابتسامة عريضة .

تكلف محمود الابتسام لها تكلفا .

لم يكن يطيب لمحمود هذا النوع من الحديث الذى لا جمال
فيه ولا فن ولا أن يسمع شرحا للعدد والآلات فهو رجل فن
وخيال لا رجل ميكانيكا وستانيكا فاستقضى حسينا دينه

قائلا . ولكنك لم تقصص على قصة الغيد الأربعين كما وعدت
كيف تم لك هذا النعيم وتحقق هذا الحلم مع أن القوانين
تحرم تجارة الرقيق والإماء .

فأجاب - كلا تجارة الرق لا تزال . ويخطيء من يزعم
أن ابراهيم لنكون قد أحدث في الدنيا حدثا . فهذا سوق
رقيق وأشار بأصبعه الغليظ إلى لوحة قد كتب عليها (مكتب
مخدم عمومي) .

أنظر إلى المكتب فانك لا ترى به أحدا . ولكن عددا
من الفتيات والفتيان والصبيان والصبيان لا يحصى ولا
يستقصى كلهن رهن إشارة هذا الشيخ المسن العليل الذي لا
تكف شفاته عن التسييح والاستغفار وعم أحمد هذا والشيخ
ابراهيم بمصر الجديدة والحاج سلامة بالمنيرة هم الذين وردوا
إلى الأربعين عادة .

- في سن محكمة الجنايات ؟

- طبعا . . . واختاروهن بحيث تكون لكل منهن ميزة
تفرد بها فهذه مائسة القد ناعمة الخد وتلك فاتنة اللفظ ساحرة
اللحظ وثالثة غضة بضعة ناعمة الأهاب . . . إلى غير ذلك من
مجالي الفتنة ومعاني الجمال يختص بكل مجلى أو معنى إحدى هذه
الفتيات .

كسوتهن أنخر الثياب وكان الوقت صيفا فبدن في الثياب

البيض وكانهن حمام الإيك وجمعتهن في منزلنا القديم بالحلمية
الذى كان يقيم به جدى رحمه الله مع أربعين جارية فأعدت
للمنزل مجده وألغيت فارق الزمان .

قضيت في هذا المنزل مع هذا السرب البهيج من بنات
حواء ليالى هادئة وليالى صاحبه . كان بعضهن يجدن الرقص
فكن تريننى كل مساء ألواناً جديدة من فتنة أجسامهن
وبراعة حسنهن .

وكانت غالبتهن يجدن غناء الألحان الشعبية الحديثة .
وكانت واحدة متخصصة فى الغناء القديم فكانت مناسبة للعصر
الذى عدنا اليه فى هذا المنزل العتيق فقد استمعنا ما اعتاد هذا
المنزل أن يسمعه فى غابر عزه .

استمعنا الله يا ليل الله ، على أد اللبل ما يطول ، أرخى
الستارة اللى فريحننا وكنا أحوج ما نكون إلى تدبر الأغنية
الآخيرة واتباع نصيححتها فقد كان الجيران لنا بالمرصاد وتبدى
شيخ محكمة الجنايات من جديد بعد أن ظننته غاب إلى غير عودة
ولكن الله سلم فى هذه المرة أيضا فله الحمد على الستر .

ذلك أن امرأة من الجيران كانت مواظبة على رقابتنا من
نافذتها موصدة فى النهار ومفتوحة فى الليل ، فرأت ما رأت
وتألمت ما تألمت وثار كرامتها وجرحت عزتها كما قيل . .

وذات مساء جاء زوجها فى مسوح الوعاظ يرشدنا وينصحننا

ولكن — بصوت جهورى وفمه من النافذة جد قريب . ترى
أجاء للوعظ . أم للتشهير ؟ أجاه يشهد أهل الحى أم يشهد الله ؟
ولكنه لم يكن يشهد أحداً من هؤلاء . لقد نظرت من النافذة
فلم أر بالشارع أثراً لإنسان فنظرت إلى أعلى فوجدتها مظلة
والنافذة مفتوحة فعلمت أنه يشهدا هي لا أحدا سواها إنه
يرى ذمته حياها لا أكثر .

فلما تمادى فى وعظه وإرشاده قلت له فى صوت مطمئن
حازم : لقد تماديت كثيراً وقد راعيت حقوق الجوار فلم أولم
شعورك . أما الآن فانى أنذرك إذا تماديت فى هذا الهراء .

فاقتضب الرجل حديثه اقتضاباً واستغفر وتلعثم وهو
يقول : أنا أيضاً لم أقصد إيلا مك بل أنا أحبك وأفكر فى
مصلحتك وكنت خائفاً عليك من طيش الشباب . وأنا لم
أتكلم إلا من عشمى فاعتبرنى أخاك الأكبر .

وانتهت زيارة الوعظ ومضت أيام وزاد اللغط بين أهل
الحى ، فكنت إذا أقبلت وجدت صيانياً من أهل الحى
يتعلقون بنوافذ الطابق السفلى ليروا ما بداخل المنزل ورجالا
يلغظون ويومنون وهم ينظرون إلى المنزل .

فعلت أن دوام الحال من المحال . وأن هذا التوثب من
أهل الحى لا يده من غاية ، وزاد اللغط ، وكثر سهر أهل
الحى ونشطت رقابتهم ، فقابلت الجار الذى وعظنى وكان فى

مقهى بميدان السيدة وجلست اليه معربا له عن حبي إياه واحترامى له وتقديرى لنصائحك فتهلل وجهه واطمأن فى جلسته وهو يقول: أنا نصحتك نصيحة مخلصه لوجه الله تعالى فغضبت وأنا أراك أخا وأرى من واجبى أن أبصرك بما يجرى هنا فى الحى ضدك. لقد حرر الأهالى عريضة لمكتب الآداب وقعوها جميعا يتهمونك فيها بأشنع التهم . فلماذا تمسكنهم منك يا بنى . — وهل رفعت العريضة .

— لا أظن فقد رأيتها منذ ساعة فى يد الحاج سيد لا يزال يجمع عليها توقيعات جديدة . — وما الحل .

— الحل يتوقف عليك فإذا وعدتني بتسريح صويحباتك استطعت أن أفعل شيئا لصالحك . — لقد وعدتك فماذا أنت فاعل .

— ما دمت قد وعدتني فأنا سأبذل جهدى لأحول دون رفع هذه العريضة وسأناجح إن شاء الله — شكراً جزيلاً . وانتهت السكره وجامت الفكرة القد انصرفت من حديث هذا الرجل وأنا لا أعلم بالضبط ماذا أفعل فالآراء فى ذهنى متضاربة .

أأمضى فى العناد إلى آخر مداه ؟ إن هذا جميل لأنه يحفظ له ما أنعم به من لذة وسرور ولكنه أمر غير سليم

العاقبة . . والبنات قاصرات فالطريق معبد إلى محكمة الجنائيات
وليمان طره .

أسرحهن كما وعدت وأعود إلى الحياة المغامرة الأولى ،
الحررة الطليقة هذه خطة أسلم عاقبة . ولماذا لا أجرؤ أن أقول
أنها أهنا وألذ فالليالي الأولى مع الغيد الأربعين كان فيها نشوة
المغامرة ولذة الجدة كما كان لها جلال القدم وجمال الأساطير .
ولكنها استمرت فأخذ شيء من السامة يرين عليها ويقلل من
نشوتها حتى أصبحت في النهاية حياة عادية لا مقاومة فيها
ولا جدة . ومع ذلك فقد استبقيتها لأنى تعودتها وخشيت من
وحشة الانفراد إذا انتهت هذه الليالي .

ولكن الموقف قد تغير الآن . فقد أصبحت سمعتى
ومستقبلى فى الميزان وأصبحت فى النهاية مسيراً لا مخيراً .
فاعتمدت على الله واخترت فكرة التسريح ولكنى بذلت لهن
فيما بعد مساعدات كبيرة . فقد ساعدت بعضهن على الانضمام
إلى بعض الفرق الاستعراضية الراقصة وقد برزت إحداهن
تبريزاً تاماً فتنافست عليها الصالات وأصحاب الأفلام .

واشتغلت كثيرات منهن فى فرق العوالم بشارع محمد على
فى إحياء الافراح والليالى الملاح ونبغت منهن مطربة فى
الاغاني الشعبية .

فلما قابلنى جارنا ذات يوم ووجدنى ماضياً فى تنفيذ

ما وعدت أعجب بنى ودعاني إلى منزله . وكنت لا أحب السيدة لأنها أصل كل هذا العناء وخشيت حين ألقاها أن أرى منها نظرة الشماتة التى تهون على المرء كل المصائب ولا تهون . ولكنى لم ألبث أن رأيتها صديقة لا عدوة ولم ألبث أن شكرتها على ما قدمت من جميل . (فأنجتنى من حياة الطيش والجنون التى كنت أحيها) .

— الحمد لله . خسارة أن شابا من أصل عريق مثلك يضيع بين أهل هذا الحى الأوباش .
— خسارة ! ولكن الله سلم .

ويتصل بيننا الحديث وتتصل المودة فلا تخفى على شيئا من أسرارها وأسرار أسرتها فاستطيب زيارتها كل مساء لا تغزى عن فقد الغيد الأربعين .

— ولكنها ليست فى سن محكمة الجنايات .
— تساهل . لقد كانت محدثة بارعة ذكية جميلة شائقة ولا تعدم أن يكون من زوارها من فى هذه السن .

وحدث ذات مساء أن كنت فى زيارتها فاشتكى زوجها من ثقل رأسه وتصدعه فاستأذن فى الانصراف فأذنا له بطبيعة الحال متمنيين له أطيب الآمال وما يكاد يصل حتى يسمع له زفير وشخير فقد كان متعبا على ما يبدو . فى هذه الخلوة سألتها : أنتحين زوجك — تحدثنى فى صراحة .

— بصراحة أبغضه .

— لماذا وهو وسيم قسيم رشيق القد جذاب الحديث .

— ولكنه ناعم . جبان يدور ويلف ولا يواجه ولا يجابه

حدث مرة أن اتهمني في صديق له فغضبت أشد الغضب

وما كاد هذا الصديق يصل إلى هنا يوما حتى قلت له . يا فلان

بك أرجوك المَعذرة إذا قلت لك إن كلام الناس كثير والخير

أن تحضر زوجك معك إذا أردت زيارتنا وأن يذهب زوجي

إليك في منزلك ولا تحضر أنت .

فثار زوجي وفار وصاح بي . كيف تهينين ضيفي كيف

تهينين ضيفي وكان في حالة تعصية فظيعة .

وفي اليوم التالي أتى ومعه الضيف مصالحة له وترضية .

فقابلته في ترحاب ولم أعد أهتم بكلام زوجي واتهاماته .

ومن يومها عجزت تماما عن احترام زوجي لم أفهم بالضبط

ما الذي يخافه زوجي من هذا الرجل حتى يستدل له كل هذه

الذلة ويرهبه كل هذه الرهبة وإذا كان يعلم من نفسه هذا

الضعف فلماذا الاتهام والقذف .. وهل أنا أهل لأن يشنع على

ويشهر بي . وهنا تومض عيناها بعاطفة ملتبئة فأقبلها وأعتقها

وأنا أقول كلا انه كذوب ظلوم وأنت ملاك طاهر يا حبيبتى

ويحتم الضم والتقبيل على نغمات الزفير والشخير .

ويغادر الصديقان المقهى ويمضيان بضع خطوات فينادى
حسين تلميذة في الطريق . نعمت .

فتقبل عليه فينتحى بها جانباً ويسأله محمود بعد عودته .

— هل هي إحدى صويحباتك ؟

— نعم أليست جميلة ؟

— جميلة جداً . وفي سن محكمة الجنايات .

الفصل الثالث

وحي الحذاء

ولكن الأمر لم يسر بين الصاحبين على هذا المنوال دائما .
ولم يواظب حسين على أحاديثه كما توقع صاحبه بل جعل حبه
يفتر شيئا ما . وصار يؤثر بالموودة الصافية والأحاديث العذاب
زميلا آخر .

ولكن الظروف تهيء له دائما فرصا لدراسة صاحبه
والاطلاع على كل غريب عجيب من أمره .
فبينما هو ذاهب إلى الجيزة للقاء سامى بك الأديب الكبير
إذ أبصر حسينا جالسا على مقعد بواب بالروضة باكيا
متحبا .

أهو حسين ؟ نعم إنه من غير شك ولكن ماذا أتى به
إلى هنا ؟ وماذا يبكيه وهو جالس إلى جوار البواب وقد كان
منذ أسبوع أسعد أهل الأرض يتحدث عن اليخت ولياليه
والغيد الأربعين .

فلما وصل محمود إلى الجيزة وزار سامى بك الأديب الكبير
كانت ترسم في ذهنه من آن لآخر صورة حسين جالسا على
ذلك المقعد المتواضع إلى جوار البواب باكيا حزينا ضارعا

خاشعا . وعول على النزول بالروضة في عودته من الجيزة
والتحدث إلى حسين عله يستطيع أن يفرج كربته ويكشف
غمته . أو يعلم سر هذه الدموع .

ولكنه لم يجده ولم يجد البواب وطال انتظاره لها دون
أن يبدو لها أثر .

ترى أجاى يشتري هذه العماره بالنقد المتضخم في خزائنه
ولكن ماذا يبكى في هذا ؟ ترى هل أصابه هوى جديد وهو
الذى يقول إن قلبه لا يعلق به حب وإن كان ينشد المتاع أبدا ؟
وجال بذهنه خاطر طالما ظفر بأعجابه وإقناعه ذلك أن
حسينا هذا الذى يقضى يومه فى أهواء الوزارة وحجراتها ثم
فى أرجاء المدينة وعلى مقاعد البوابين لو أنه ترك وظيفته
المتواضعة ومغامراته وشطحاته وعكف على استثمار أمواله
لتضاعف إيراده ونمت ثروته وصار من سراقه هذه البلاد .

ولكن حسينا رجل عجيب له منطقة الخاص ومسلكه
الخاص وتناقضه الذى لا يقف عند حد ثم من يدرى ألا
يجوز أنه قد ألف هذه الأساطير وجعل نفسه بطليها فان غرابتها
ونسبتها اليه كلها توحيان بالتحفظ فى تصديقها وإلا فمن يتصور
أن قتي النعيم والمتعة يجلس على مقعد بواب خاشعا ضارعا
يسكب الدمع الغزير ليستدر عطف ذلك الأسود الغليظ .

وفى الصباح يسأل حسينا عن حاله فيجيبه بأنه فى أحسن
الحالات فلا يخرجه بالاستفسار عن مشهد الأمس ويدع

الأمور تسير ولكنه لا يزال يعجب من أن حسينا بعد أن كان يؤثره ويصطفيه قد صار يتجنبه ويتحاشاه وصار صديقه الأثير لديه العزيز عليه (محب افندى) وهو موظف نصف قد أربى على الأربعين بقليل ولا يبدو فيه أثر من كياسة أو رقة ومع ذلك فإن حسينا يهبه قلبه ووقته ويقضى معه الساعات الطوال في خلوة صافية ومودة خالصة .

فإذا تكشف لحسين فجأة من أمر هذا الصاحب الجديد الذى كان يراه شاذ الأطوار جاف الخلق أخرج العقل ميالا للشجار والصدام ثقبلا دميما حقودا على الناس جميعا وإن كان اسمه (محب افندى) لقد كان يحدث محمود أعنه بأنه مغتاب لعين، مشاء بنميم ، عتل زعيم .

قد اجتمعت في تجاليد مقابح الخلق والخلق .

بهذه الألفاظ وصفه حسين وعلى هذه الصورة رآه محمود فما الذى أعجب حسينا فيه فجأة وعلى غير انتظار ؟

وفكر محمود وفكر فما فزاد السر إلا استغلاقا ولا زادت الحقيقة إلا استخفاء فلا بد له لى يفهم حسينا على وجهه أن يفهم هذا الشخص الديمى حق الفهم فمحل على الاتصال به وتحمل عبء صحبته والحصول على ثقته ونجح التودد وأثمرت الثقة المنشودة فلم تمض أيام حتى قال محب لماذا لا تزورنا يا أستاذ .

فأجاب جذلا مسرورا . أنا تحت النظر ولكني لا أعرف
المنزل .

— العنوان شبرا — كذا شارع كذا — رقم كذا .

وفي يوم الجمعة كانت مركبة الأمنيوبوس تنهب به الأرض
إلى شبرا وصورة محب افندى مرتسمة في ذهنه وإلى جانبها
تلك النظرية لبعض الكتاب الانجليز قائلة بأنه لا يخلو إنسان
ما من ناحية من نواحي الجاذبية إن لم تكن في شكله العام ففي
عضو من أعضائه . في عينيه ، في أنفه ، في ملامحه ، وإلا فهي
في خلقه أو عشرته .

يتأمل محمود هذه النظرية ثم يتأمل صورة محب ويقول
في نفسه . لا لم أضع يدي بعد على ما يسمونه نقطة الجمال
في هذا الشخص الدميم فلنصبر فقد بلغنا منزله .

— أهلا بالأستاذ محمود

— أهلا وسهلا

— تفضل . . . واقتاده إلى حجرة الاستقبال

— وبعد ألفاظ المجاملة العادية قال محب . أتعرف ما فعل

حسين ؟

— كلا ماذا فعل

وقبل أن يجيبه دق الجرس وكان القادم حسينا نفسه .

— السلام عليكم

— لا سلام ولا كلام
— وما ذنبي أنا — الذنب ذنبهم
— ذنبك أنت — لقد أخجلتني بتصرفاتك السخيفة .
لماذا لم تستصحب أم إبراهيم معك لتمهد لك ولترزق ... وهل
هذه طريقة ؟

— وهل غضبت أم إبراهيم ؟
— نعم من غير شك . إنها في الحمام تغسل ملابسها وقد
أظهرت لي منتهى الاستياء من تصرفك .
— حالا سأصالحها . . . وسمع صوته وهو يقول لها .
— صباح الخير يا قر التمام ويا نور الظلام .
— لا قر التمام ولا نور للظلام روح بلاش كلام فارغ .
— كلام فارغ — لا لا ما تزعلين أبدا — أدى رجلك
أبوسها .

— أستغفر الله — مش كده اخنا أد المقام .
ولان قلب المرأة الغاضبة الساخطة وكأنها ما غضبت
وما سخطت .

فعجب محمود من كل ما سمع . . . ولم يفهم منا شيئا فقال

— ما الخبر
— حكاية في غاية السخافة سأقصها عليك .

أنت تعلم أن زوجي في منزلها منذ زمان طويل وأنا
أبغضها وأتمنى لو طلقته. وقد أجمعت رأيي يوما على الطلاق
وبحثت عن زوجة أخرى فدلتنى أم ابراهيم الخاطبة على زوجة
في حدائق القبة. وأم ابراهيم هذه امرأة صالحة لا تعرف
الغش ولا الخداع.

وهذه الشابة في سن الخامسة والعشرين الآن وقد كانت
زوجة لمحام شهير مات عنها زوجها بعد عامين من زواجهما
فترملت وقد خطبتها فوجدتها على نصيب وافر من الجمال.
وجه مشرق كالقمر وعينان نجلاوان زرقاوان وشعر ذهبي
وجسم بض ممتلئ مع طول في القامة واستواء في القد وهي
تعيش مع أمها وهي سيده تركية آية في الأدب وكرم الخلق
وقد رأيتها وسط أثائها ورياشها كأنها تحفة من تحف الفن
النادرة التي تزين هذه الدار.

فساءلت نفسي أهذه هي السيدة التي سأقول لها إذا أقبل
الصبح سخني الماء أو أعدى الطعام؟

ولكني لم ألبث أن أجبت على هذا السؤال قائلا: إذا
كانت هي راضية بعد أن علمت بكل ظروفى فماذا يخيفنى أنا؟
وعزمت على الزواج وأعددت العدة. ولكن بعض
الأهل أسفروا بالصلح بينى وبين زوجتى فألانوا عنادها
بإظهارها على حقيقة ما أزمعت وألانوا عنادى بتذكيرى

بأولادى ، فلذات كبدى . فعدلت عن زواج الأرملة الحسناء
وفى هذه اللحظة أقبل حسين ومعه أم ابراهيم وهو يقول :
لقد صالحت أم ابراهيم وصرنا حبيبين — أليس كذلك
فتجيبه أم ابراهيم . طبعاً — أنا أستغنى عن قرابك .
وكانت أم ابراهيم هذه قصيرة بدنية . مكحلة العينين
يعلو حاجباها ويهبطان كلما نطقت بلفظ أو أومأت بإشارة .
وكانت ذكية واسعة الخيلة على ما يبدو ، وقد جاوزت
الخمسين من غير شك ولكن لا يزال القلب يألفها ويطمئن
إليها منذ المقابلة الأولى .

محمود . لماذا غضبت من حسين ؟

أم ابراهيم . لا دا حسين ابنى .

حسين . هاتى ايدك يا ماما ... وأخذ يدها وقبلها . ولكنه
لم يبد يوما ثقيلا سخيلاً دميم الدعابة كما بدا فى هذه اللحظة
فلما استياس محمود منهما التفت إلى محب وقال له : أفندم
أبحاء باستئناف حديثه فالتفت إلى حسين وقال : طبعاً محمود
أخونا ولا نخفى عليه شيئاً وإنى قصصت عليه ما حدث وسأكمل
له الحديث وأظن هذا لا يغضبك .

— أبدأ . فاستأنف محب قائلاً :

— لما وجدت حسيناً يبحث عن الزوجة الصالحة قلت له :
إن شابة بارعة الحسن كريمة الحسب قد ارتضيتى زوجاً مع

عرفانها بحالى ولكن زوجى ردت إلى فلا شك أنها ترتضيك
لأنك مثلى على الأقل . قلت له ذلك فى الصباح فكان فى
الساعة الثالثة تماماً يضغط على الزر الكهربى بباب منزلها .

— من حضرتك؟ قالتها أمها السيدة التركية فأجاب قائلاً:
عجب أفندى الذى خطب السيدة الصغيرة قد ردت إليه زوجته
وأنا زميله ولا أقل عنه فى شيء لذا فقد أرسلنى لأتزوجها
بدلاً منه لأنى ...

ولم تدع السيدة يكمل عبارته فقد أغلقت فى وجهه
الباب وهى تصيح : بدله ؟ هى شقة للايجار ولا بيعة .

فخرج يبكى وتوجه إلى البواب فأهوى على دكته وراح
يشكو ويبكى ويستعطف ويقول بين التشيج والزفير أنا سأموت ،
سأتحر ، لى أحبها وأعيدها ولا أطيق بدونها الحياة . وجعل
البواب يواسيه ويرفقه عنه فأنهم قد رضوا بزميله فلماذا يطردهونه
وذهب الاثنان إلى أمين بك صاحب المنزل وبعد تقديم من
من البواب قص حسين قصته بين الزفرات والعبرات ورجا
سعادة البك أن يتوسط فى إتمام هذا الزواج الذى يتوقف
عليه هناؤه وسعادته .

فنظر إليه أمين بك وقال : انهم ما داموا ارتضوا زميلك
فالطبعي أنهم يرتضونك . وإذا أصرروا على الرفض فسازوجك
خبراً منها .

— كلا فانهافتاة أحلامى ولن أتزوج من غيرها إذا رفضتني
— على كل حال سأحاول .
وخرج ليحاول ولكنه عاد يقول: لم يقبلوا وقد حاولت
اقناعهم بشتى الطرق ولكنهم أتراك .
وهكذا باء حسين بالخسران المبين .
وما كاد محب يبلغ هذا الجزء من قصته حتى علا صوت
أم ابراهيم وهي تقول : خاف يدفع لى قرشين — جرى راح
لو حده — أهو اللى لقاءه كفاه .
أو تقدرين على إصلاح ما أفسد الدهر .
— نعم — أذهب اليهم باكر .
— إذن فاذهبي . وربنا يتمم ولن أبخل عليك بالمال هذه
المرة .

واستأذن وانصرف معتذرا بارتباطه بموعد مع فتاة
فالتفت أم ابراهيم إلى محمود وقالت له :
لكن يا محمود بك أنا عارفا لك عروسة مدهشة . غنى
وأصل وجمال .

— غنى . ماذا تملك ؟
— تملك ٣٠٠ فدان وفيلًا وسيارة ملاكى . أبوها حسين
باشا كان وزير الله يرحمه .
— ولكن ربما لا ترضى بى وهى عريقة الجاه واسعة
الثراء إلى هذا الحد .

— سأقول لها إنك مدير كبير — ماهيتك خمسين جنيه
وعندك عزبة ميت فدان في شبين الكوم .

وكان محمود شابا حصييفا فقد رآها تنظر من خلال مجهر .
ووراء عدسته رآته مديرا كبيرا . ورأتها صاحبة ضياع واسعة .
— وبدأ يشك في روايتها ولكنه استمر في حديثه قال .

— ومتي تذهبن اليها ؟

— اليوم .

— مدهش — في أى وقت .

— الساعة خمسة . لكن بس جزمى اتقطعت ولا أقدرش
أروح لناس كبار بالشكل ده بجزمة مقطعة . اشترى لى جزمة
النهارده وشراب . ففكر فى الأمر ثانية وقال لنفسه . ألا يجوز
أن رغبته فى الحذاء هى سر هذا التهالك والإغراء .
ولكنه أجابها . أجلى هذا الموضوع أسبوعين لأفكر فيه
جيذا .

— على كيفك .

ومضت أيام وجاء حسين إلى المكتب صباح الأحد
جدلا مسرورا .

فقد قبل وسيدهب اليوم لخطبة الأرملة الحسنة .

وفى اليوم التالى يأتى محزوننا كسير القلب مهموم النفس .
ترى ماذا يحزنه والسيدة على ما قيل جميلة غنية قد فتنه

قبل أن يراها وسلبت رشده ولكن كثيرا ما تكون هذه
المحنة الفجأة سببا في خيبة الأمل عند ما لا تبلغ الحقيقة شأو
الخيال وهي قلما تبلغ .

ترى أكان غرامه الفطرى بسن محكمة الجنايات مفسدا
عليه فتنة هذه الأرملة الساحرة . كما أفسد عليه كثيرا من طيبات
الحياة .

ولكن لا داعى للحدس والتخمين . فكل خاف سيعلم
وهذا محب مقبل عما قريب وعنده فصل الخطاب .

وأقبل محب عما قريب ردار بينه وبين محمود الحديث التالى .
— حسين مهموم جدا — فماذا جرى له .

— لقد ذهب لخطبة السيدة التى حدثتك عنها فراقه
جماله ورياشها .

ولكنه جعل يتحسس الأثاث ويعجب بجماله وإتقان
صنعه .

ويسأل عن ثمن كل قطعة وهو يتسم ويتعجب وجعل
يحس السجاجيد ويختبر المرايا ويقول . الله دى حاجة لوز
خالص .

ودخل حجرة النوم وجعل يتبرك بوضع يده على السرير
والحشايا والدواليب . ونظر إلى ما تحت السرير وأبدى ملاحظة
سخيفة أدت إلى طرده من المنزل وطردت أم ابراهيم معه
وحذرت من دخول المنزل مرة أخرى .

— وماذا وجد تحت السرير ؟

— وجد حذاء من الكاوتشوك فقال: (دى جزمة رجالى)
فأجابت السيدة الكبيرة بأنها تلبسها أحياناً لأن رجلها
تتعبان من الأحذية الضيقة والكعب العالى .
فرد حسين قائلاً : ولكن توجد أحذية حريمى الطف
من كده وتناسب رجلك اللطيفة أكثر .

ولكن لماذا اهتمامك هذا كله بأمر هذا الحذاء ؟

— لا مؤاخذه — ظننته حذاء رجل يتردد عليك .
رجل يتردد علينا ؟ .. يا ساقط يا كلب ... أخرج .
وكأنما بوغت ولم يكن يعنى ما يقول فقد تلعم
واستغفر واعتذر .

وبدا يقول : لست أقصد ... فقاطعت قائلة : لا تقصد
ولا غيره أنت سافل منحط .

فتم ليثم قدمها فجذبت رجلها واستدعت الخادم فتولى
طرده ودخلت هى فطردت أم ابراهيم وخرج الطريدان
مشيعين باللعنات يجران أذيال الفشل وخيبة الأمل .

وهكذا كان الحذاء الذى رأى صاحب وحي مشوم أفسد
عليه أمله فى الزواج من الأرملة الحسنة .

— هذه هى القصة لم أخف منها شيئاً ولكن عليك بالكتمان

— كأنك لم تقل ولم تسمع ولكن لى سؤال واحد .

— ما هو ؟

— المنزل بالروضة لا بجذائق القبة كما أخبرتنى .

— نعم هو بالروضة ومن أدراك ؟ حسين ؟

— كلا لقد رأيته يوم الأربعاء يبكي وينتحب على مقعد

البواب فلم أفهم سره حتى لقيتك — لقد ظننته آتياً ليشتري

العمارة بالنقد المتضخم فى خزائنه وضحك الصاحبان ملء

الصدور والأفواه على مسلك حسين من الأرملة الحسنة .

ورأى محمود فى محب أفندى نواحى حبيبه حقاً فهو فى

منزله مضيف كريم ألف مألوف يشعرك أنك فى منزلك

وأنك تعامل صديقاً طالت عشرتك له وثقتك به .

الفصل الرابع

حسين يخطب

وما تكاد العلاقة تصفو بين الشاعر ومحب أفندى ويصبح له صديقان بدلا من صديق واحد حتى تعصف يد النقل بمحب أفندى إلى بلد قريب من القاهرة فيقيم له إخوانه حفلة تكريم على نحو ما يفعل الموظفون في مظاهراتهم الودية التي لا تخفى شيئا من الحقيقة التي لا مراة فيها وهي أنهم قوم متحاسدون متباغضون... متبادلون مع ذلك أرق اللفظ وأطيب المجاملة . وكأنهم يحسبون هذا ضربا من الديبلوماسية أو لونا من الدهاء وليت لهم نفع من وراء تفاقمهم الذي يدعونه ديبلوماسية أو مؤامراتهم الرخيصة التي يسمونها دهاء .

وفي اليوم الموعد صفت الموائد في حديقة رحيبة بمنزل أحد الرؤساء ووضعت أدوات الشاي وطاقات الزهر ثم أقبل المحتفلون يتحدثون في أسى وأسف عن فراقهم لزميلهم المنقول الذي سترك فراغاً لا يملؤه سواه فكفاءته في كسب القلوب قد فاقت كل وصف وأن أحدهم ليدمع وآخر يواسيه بأن هذه حال الوظائف .

وكان الموظف المحتفى به منقولا إلى بلدة تبعد عن القاهرة

بضع عشرات الكيلومترات وهى شقة غير بعيدة إذ قيست بالجهة التى سينقل اليها حسين فهو عما قريب راحل إلى مكان ما بالأطلنطى .

وأقبل المحتفى به وأقبل الرؤساء فصفق الحاضرون وبدأ تناول الشاى وكان برنامج الخطب والقصائد بيد أحد الزملاء فرجاه محمود أن يدرج اسم حسين فى قائمة الخطباء . لعله أراد أن يسمع حسينا يتكلم أمام الملاء فان حديثهما كان حتى الآن على انفراد فخشى محمود أن يكون صاحبه مستغلا جدته وعدم إلمائه بماضيه .

خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، وتباكى المتباكون ، وسكبوا ما استطاعوا من دموع التماسيح ثم كان دور حسين فوقف باسمه ابتسامته القديمة الماكرة البلاء ويداه على المنضدة وقد غشاه شيء يشبه الخجل ما لبث أن تبدد .

بدأ كلمته باعتذار عن اتباع تقاليد هذه الحفلة لأنه وقد طلب إليه الكلام يرجو أن يسمح له باستعمال اللغة التى يجيدها . ولما كان من مهده قد نشأ فى حضانة مربية سكسونية ولما كان قد قضى بانجلترا أربعة عشر عاما فانه استأذن فى أن يخطب بالانجليزية فدهش القوم وأنصتوا لحسين يتكلم ويهدر وكأنه الثور الهائج لا يفهم له أحداً لفظاً ولا يفقه معنى . ربما كان السبب فى ذلك أن شفتيه وشدقيه غليظان قد غص بهما

فوه ، وحسن الأداء فى الانجليزية محتاج إلى فم طلق لا غصّة به ، أو لعل أسلوب الخطاب كان أعلى من مستوى سامعيه فلم يفهمه حتى محمود الأديب المتمكن من الأدب الانجليزى .
أيا كان السبب فإن أحداً لم يفهم وبدأ الجمع يسخر من الخطيب البليغ الذى بذل فى بلاغته شكسبير ويرون وما كولى واديسون

سخرية خبيثة لا فن فيها ولا جمال ، سخرية موظفين .
وينتهى حسين من خطابه والعرق يتصبب من جبينه لا خجلا فانه أبعد الناس عن أن يخجل ولكن تعباً ونصبا ، فقد كان الخطاب طويلا ويجب أن نعتزف أيضا بأنه كان جميلا لمن يفهمه ولكن لم يفهمه أحد . ظلت هذه الخطبة حديث اخوانه أياما وأسابيع وافتن زملاؤه فى التشهير بها عند الرئيس لأنهم رأوا منه استعدادا للهو بهذا الخطاب وبصاحبه فسرعان ما تباروا فى هذا الميدان — افراس رهان .

وسافر محب وظلت علاقة حسين بمحمود على فتورها وفكر الشاعر فى قضاء أمسية بمصر الجديدة وكان سعيداً بهذه الزيارة أيما سعادة — حفيا بها أيما حفاوة . لقد كان يحب هذه الأسرة ولا يزال يحمل لها أجمل الذكريات ويرى نفسه مدينا لها بما يستشعر فى الحياة من هناء ورغد يخففان وطأة ما يلاقيه من عناء وعنت ، فهو بلا ريب مدين لها بقلبه الكبير وحبه الأول .

كانت سونه طفلة عند ما عرفها في منزل آ لها ولكنها لم تكن طفلة في إدراكها فانها تحدثه وهي في سن العاشرة حديث فتاة العشرين وأن عينيها النجلاوين وابتسامتها الشاعرة وحديثها الساحر ، وهذا الحاجب الرقيق الذي يعلو قليلا أثناء الحديث وهذه العين التي تضيق أحيانا وتتسع لتزيد الحق وضحا والحياة نورا إن كل أولئك لفى قلب محمود زاد لا يفنى ومعين لا ينضب .

وما يكاد يدخل المنزل حتى تقابله السيدة باشة مستبشرة ، محييه مرحبة ، ثم تقتاده إلى حجرة الاستقبال ، فلا يرى فتاته ويكاد يسأل فيمنعه الخجل ولكن الأم الذكية تقرأ ما يدور بخلاذه فتقول له . إن سونه في حجرة مكتبها تذاكر للكالوريا وقد أوشك موعد الامتحان . أنجح الله لها المقاصد .

فيحس كأنما انتشل من هذه ويقول : آمين هلم نسلم عليها فإني مشوق اليها .

فيدخلان عليها الحجرة ولكنها لا تكاد تحس بمقدمهما لفرط استغراقها في الاستذكار ويقترب محمود منها فما تكاد عينها تقع عليه حتى تحمق مندهشة ولا تنبس ببنت شفه .

— أتعرفين من هذا يا سونه ؟

— أعرفه طبعاً . . . وهل أنسى محمودا !

— كيف أنت يا سونه ؟ لقد كبرت ما شاء الله .

— وكيف أنت يا محمود يا من نسينا سبع سنين . فآخر مرة زرتنا في مايو سنة ١٩٣٦ ونحن الآن في مايو سنة ١٩٤٣ .
— كم أنت قوية الذاكرة يا سونة ومتى الامتحان ؟

— في الأسبوع القادم .

وتباطأ محمود وتلكأ وجعل يسأل أسئلة لا ينبغي بها إلا إطالة المكث في حجرة سونة فتسعه الفرصة المواتية بسماع الجرس يدق فتخرج الأم — وتتركهما وحيدين يستعيدان ما كان من ذكرياتهما القليلة الجميلة ، أيام القلب الخلى والزمن الخالى . ولكن محمودا يلاحظ أن سونة قد تغيرت شيئاً . فانها الآن أشد خجلاً وأقل كلاماً ترى أقتل الاجهاد في الدرس والتحصيل حيويتها ونشاطها وإقبالها على الحياة أم هو الخجل الجنسي الذى يقوى في دور المراهقة كما يقول علماء النفس ويتأمل جسمها فيراها قد نمت واكتملت حساً ومعنى وبدأ في عينيها معنى جديد . . . معنى الأنوثة الناضجة والحب السالب .

وما تكاد الأم تخرج لتستقبل بعض الضيوف حتى يقترب من سونة ويحدثها فتدع الكتاب الذى كان بيدها وترنو اليه بكل ما فى عينيها من سحر وفتنة فيتأملها محمود ويذكر قوله لصاحبه « إن شدة الحياء تفسد على طيبات الحياة » فلم تكن لو استطاع أن يطبع على فم فتاته في هذه اللحظة قبله يعتبرها ذروة ما تصل اليه حياته من متعة ونعيم . . . ولكن هيات

فانه يتهب هذه المواقف ويقنع منها بسعادة الهائم الحالم ... مكرها
لا بطل .. ولجأة تقول سونه : استمع إلى حديث هذا الضيف
لأى إنه حديث عجيب :

أنا سعيد جدا أن أزورك لأول مرة وبغير معرفة سابقة .
إنى بحثت طويلا عن شابة تصلح له زوجا . فلم أجد أنسب لى
من كريمكم .

وأنا لا أبغى المال فإن لدى منه سبعون الفا ذهبا ولكنى
أبغى الخلق والجمال وأنا حسين مسعود ، كان جدى محافظا
للقاهرة وجدى لأى وزيرا فى تركيا .

إنه حسين جاء يفشد اللهو والمتاع فى هذا المنزل الحبيب
الذى يراه محمود حماه وملاذه . قد جاء يفتح أبواب الأسر
بعد أن فض سامر الغيد الأربعين وقطع ما بينه وبين عادة
اليخت وفشل مع الأرملة الحسنة .

لقد أتى يعبت بسونه كما عبت بعشرات وعشرات .

وتنصت سونه وينصت محمود اليه وهو يقول :

إنى أشد الناس استقامة بخلاف المعروف عن أولاد
الدوات وأودى فروض الصلاة والصوم ... فليين قلب الأم
الصالحة فتسأله :

وهل لسعادتك وظيفة أم تكفى بإدارة أملاكك .

— لقد فضلت أن ألتحق فى وظيفة بوزارة الخارجية .

براتب قدره خمسون جنيتها... لاني أكره قضاء الوقت في
البارات والمقاهي كما يفعل أولاد الذوات ..
— تشرقنا يا حسين بك .

— أسمحين أن أراها الآن ؟ لقد جئت خاطبا .

— ولكنها الآن تنزه مع أخيها وربما مرا على عميمها .

— وهل لديك ما يمنع أن أظل هنا أنتظر .

— كلا . انك تشرقنا يا حسين بك .

وتقبل الأم سعيدة خفيفة لتبلغهما النبا السار وما كانا
بجاهلين وتدعو ابنتها أن تزين وتلبس أنخر الثياب لتقابل بعد
قليل حسين بك المليونير الذي جاء يخطبها وتقول انها آتية
من زيارة عمها وأخوها ذهب لبعض مصالحه وتعود الأم إلى
الخطيب الوجه .

لقد شعر محمود بقلبه ينفطر مما يرى ويسمع فلم يعد يحمل
لحسين حبا ولا ودا بعد أن هاجمه في حماه وطعنه في أعز آماله
فلم يجد بدا من أن يسر إلى سونة بمسا يعلم من أمر زميله
فاشمازت وصاحت قائلة إنه إذن نصاب حسيني من هؤلاء
وخدع أمي .

— لقد شاء أن يزيد الضحايا واحدة .

فعلت هذه الكلمة في سونة فعل السحر فاندفعت إلى حجرة
الاستقبال قائلة للزائر العظيم . انفضل يا افندي . ليس هذا

مكانك . هذا منزل شريف فابحث عن أربعين أخريات .
فكاد يصعق . مما سمع وحاولت أمها أن تزجرها وتنهاها
فأفضت إليها بكل ما تعلم دون أن تذكر اسم محمود .
فتقول له السيدة . يا بني هذا عيب وليس هذا طريق
الزواج . إذا كنت تود زواجا فارسل سيدة من أسرتك ثم
أهلنا حتى نسأل عنك فتضيف سونة واعلم أن محكمة الجنايات
لن تخطئك إذا كررت معنا هذه المهزلة — مع السلامة .

الفصل الخامس

ذات مساء

كان لهذه المفاجأة الأخيرة أثر سيء في العلاقات بين الصديقين فلم يلبث محمود أن استسمح حسينا واستثقله وصار يحمل له في نفسه شعورا إن لم يكن بغضا . فليس بعيدا عن البغض .

ورأى نفسه يتجنبه ويتفاداه . وكانت القلوب عند بعضها كما يقولون فان حسينا هو الآخر يتجنبه ويتفاداه ولا يصاحبه إلا إذا لقيه وجها لوجه . وما يزال محمود يعجب ويضحك كلما تخيل حسينا يقول للسيدة التركية ... إن فلانا ردت اليه زوجته فأرسلني بدلا منه . وحين يقول : حسبه حذاء لرجل يتردد عليك ثم إهواؤه على الحذاء يقبله .

فيستروح محمود بهذه الصور ويحاول أن يفهم منها أن ما بدر من صاحبه ليس إلا شذوذا أصيلا في طبيعته لم يقصد به خيانة أو إيذاء .

وكيف يقصد خيانة أو إيذاء وهو لا يعلم أن لصاحبه صلة بهذه الأسرة فيتجنبها ويعفيها من مغامراته . فلماذا الغضب من خطأ غير مقصود وإيلام غير متعمد ؟

إن هذا حيف لا يرضاه التفكير السليم والمنطق القويم !
فكيف يرضاه محمود وهو الذى يعتمد فى تصرفاته وأحكامه
على التفكير السليم والمنطق القويم كما يزعم ؟

ولكن إذا كان الأمر يتصل بامرأة ورجل أو امرأة
ورجلين فهو لا يخضع لتفكير أو منطق بل لأنانية هوجاء
ووحشية جارفة . وكل ما يستطيع المنطق والتفكير لا يعدو
تهدئة الخاطر وتسكين الألم بين الحين والحين .

ومضت أيام وهذا الخاطر وسكن الألم وصفح محمود عن
صاحبه لا إلى حين بل إلى آخر الزمان . يعينه على الهدوء
والسكون والصفح ما كان يسمع بين الفينة والفينة من سقطات
حسين ومغامراته فكان يطيب له أن يصغى إليها ويرى فيها دواء
لألمه وبلسم لجراحه حتى صار من هواة جمعها ورواة أخبارها .
وما درى حينذاك أنه مسوق بما كان ينزه نفسه عنه من
أنانية هوجاء وحيوانية جارفة فهو ينتقم من حيث لا يعلم .

لذا فأتنا نراه ذات مساء يستمع فى شغف وتلف إلى
حديث لزميل عن حسين وعجائبه وكان معهما ثالث من أقرباء
محمود أتى إلى القاهرة ليشهد مولدا لبعض أولياء الله .

قال الزميل : ألا تعرف يا محمود أنى اشتريت سيارة
حسين .. اليك الرخصة والمفتاح وأخرجهما من جيبه .
محمود : عال . مبروك بكم اشتريتها ؟

الزميل : بمائة جنيه . لقد أفهمته أنى أريد شراء سيارة بمائة جنيه فأحضر الرخصة والمفتاح فأخذتهما ولم أعطه شيئا ولكنه أتى بالأمس إلى المنزل فسألته الخادمة عن اسمه فقال (قولى لسيديك محسوبك وخدامك حسين ينتظرك) - فخرجت ودعوته للدخول فامتنع وأهوى على حذائى فقبله وهو يقول (أرجوك أن تعطينى المفتاح والرخصة) فقلت له (وماذا تريد بعد أن بعت السيارة ؟)

- وأين ثمنها ؟ لم اتسلمه

وعاد إلى التوسل والرجاء فأوصدت الباب من دونه فخرج إلى مقعد البواب وجلس عليه ساعتين وامرأتى تسألنى : من هذا ؟ فأجيب زميل .. فتعجب من أن يمتن زميل نفسه كل هذا الامتحان . ثم تقول لى . أعطه المفتاح والرخصة لأنه يبدو مسكينا حزينا . لا يحب المزاح . فأقول لن أعطيها له حتى يكف عن حديث السيارات وأنواعها ومغامراته بها . فتسأل وماذا تظنه يفعل بعد أن لبث ساعتين على مقعد البواب فأجيب لا شيء سيمل وينصرف .

وحاولت زوجى أن تعثر على المفتاح والرخصة لترسلهما إليه فلم توفق فسألتنى : هل اشتريت السيارة وأعطيتها ثمنها حقا ؟ فضحكت وأخذت زوجتى المفتاح والرخصة لترسلهما إليه ولكنه كان قد مل وانصرف وإن كانت مقاعد البوابين ليست غريبة عنه .

فلما انتهى من قصته سأله محمود :

— وهل رأيت السيارة ؟

— نعم رأيتها بالجراج . سيارة عال .

— والترخيص باسمه ؟

— نعم .

— ألا تنوى إعطائه الرخصة والمفتاح ؟

— كيف وقد اشتريت منه السيارة . قالها وهو يتسم .

ثم استأذن في الانصراف الى منزله لأنه لم يعد اليه منذ الصباح .

هكذا كان محمود يشجع زملاءه على أن يوافقوه بأخبار حسين وأحاديثه وكان يشبع هذه الرغبة الخفية في الانتقام بطريقة أخرى فكان يدعو حسيناً للمحاضرة ثم يدعو إخوانه للاستماع فيجتمعون في حَلَقَةٍ من حوله وهو يحدثهم بما يراه مناسباً للمقام فإن وجدهم شبانا حدثهم عن الهزل والمجون وقارن بينهما في الشرق والغرب وكان يخلص من أمثال هذه المحاضرات عادة بأننا نحن الشرقيين لا نزال متأخرين في كل شيء فنحن لا نفتن في مجوننا الافتتان اللائق فيكون مجونا حيوانيا تافها ليس فيه ما ينعم به الغريبيون من متاع طويل ولذة دائمة .

وإن وجدهم من أهل الورع والصلاح أو كان بالجمع واحد من أهل الورع والصلاح تحدث عن فضل البسملة

والصلاة على النبي أو بركة الحج وحكمته وتمنيه على الله أن يوفقه إليه ليرى تلك البقاع التي أشرقت منها الدعوة الإسلامية التي تطهر البدن والنفس من كل سوء وكل رجس .

وكان في محاضراته على اختلاف موضوعها محدثاً لبقا سلس العبارة أخذ الأسلوب ينتقل بك في سلاسة وكياسة إلى حيث يريد من معلوماته الدينية أو الدنيوية .

لو أنه تحدث بهذه البراعة في يوم وداع الزميل بدلاً من أن يورط نفسه فيما لا يليق بأهل الكياسة والدهاء لتفادى أن يكون حديث إخوانه وسخريتهم أياماً طويلة . ولكن منطقته الخاص وتقديره الخاص قد خدعاه وخاناه .

ذهب الصديقان محمود وقريبه ليشهدا المولد في ذلك الحى القديم من أحياء العاصمة الذي ما يزال وساكنوه بقايا خالدة للقاهرة المعزية .

ذهب صاحبه لشراء بعض لفيفات التبغ فلما عاد وجده متربعا على مقعد خشبي قرب باب المقهى (إذ لم يكن غيره شاغراً) وأمامه قدح من الشاي يصب منه في أكواب دقيقة الخصر مليئة الردف سهلة المأخذ والمشرب . فجلس إليه وشاركه الشاي ثم طلب محمود نارجيلة ... وجعل يستوعب دخانها استيعاباً ثم أخذ منها صاحبه لباته وتبادلاها عدة مرات .

وكانت المصاييح تعمر المقهى في عقود لؤلؤية ذاهبة .

آفة سائغة على الناس والأشياء رواء وضياء فبدا كل شيء
جميلاً بهيجاً فالمقاعد الخشبية والمناضد النحاسية والآنية المعدنية
الضخمة فوق مواقد البترول... تبدو جميعاً في حلة قشبية
لامعة. أما طابور مداخن الغاب فكان أشبه بصف من الجنود
في حفلة عرض فالصف مستو والسيوف مشرعات بنظام
واحد... حتى الأسماك التي يرتديها رواد هذا المقهى بدت
وضيئة نظيفة.

ولقد أعجب محمود (باللاسه) أيما إعجاب. وراها
أنسب لباس للرأس في الشتاء فقد كانت برودة الجو تهدده
بعودة أمراض الأذن التي أذاقته الأمرين في الشتاء الماضي.
وعجب من جبن عليّة القوم عن ارتداء اللاسة، ولكنه عاد
فذكر السبب وهو أنها لم تنحدر إلينا من ساداتها الأتراك أو أممتنا
الأوربيين ويستغرق محمود في تأملاته تلك وهو متربع على
مقعده الخشبي. ومبسم النرجيلة في فمه حتى لا يشك من يراه
في أنه يرتاد هذا المقهى كل مساء.

حتى لقد قال له صاحبه بحق. لقد انسجمت مع المكان
تماماً وكان الشارع أمام المقهى يتلأأ ضياء وبشراً ويفيض
فتنة ودلالاً.

فهذه مواكب مختلطة من النساء والرجال من أهل القاهرة
والريف في أزياء متباينات. هذه نسوة جميلات ملففات في

علامات يبرزن فتنهن وأنوثتهن بالتضييق في هذا الفطاء
القضفاض ، وضمه على أجسامهن ضمًا ، فإذا سرن اهتزت
أجسامهن اهتزازاً يهز القلوب ، ويفتن الالباب .

وأنهن ليكثرن الوقوف أمام بائع الحلوى المواجه للمقهى ،
الذى بدت عرائسه في مسرح مضاء أكل إضاءة ، لقد وقفن
في أماكنهن وصفوفهن ، في طاعة وخضوع ، وكأنهن إماء في
سوق رقيق ، أو كأنهن غيد كساهن حسين ثياباً بيضاء في الصيف .
وهذه فتيات بعضهن سافرات ، وبعضهن محجبات ، يتلكان
هنا وهناك . وهؤلاء فتية وشبان يذرعون الشارع جيئة ورواحاً ،
ويعلقون على من يرون من فتيات ونساء ، تعليقات تسرهن
غالباً لأنها إطرأ ومديح .

ويسمع من بعيد قرع على الطبول وألحان على الناي
مخيممة قاعمة وتقرب الأصوات رويداً رويداً إلى أن تنراه
طلائع الموكب . فهذا فانوس أحمر صغير به نار تتقد وتتصل
به عصا خشبية طويلة يمسكها رجل . وخلفه خمسة رجال
يعزفون بالناي ألحاناً شجية . يتلوهم رجل يحمل مصباحاً جم
الضوء على قائم حديدي ، ووراءه خمسة رجال ، في يد كل منهم
دف (طار) ، يدقون عليه توقيعات تذكّر بتوقيعات الزار .
يليهم حصان عليه راكبان . رجل سمين يلبس لاسة وأمامه
طفل ذو عقال و (شال) أبيض .

ومضى الموكب بطله وزمره، وبدأت أنغامه تخفت في
السمع، وتحلو في الخاطر. وكان محمود شديد الطرب للموسيقى
والغناء يجد فيهما ترجمانا لآله وذكرياته، وأمله الباسم الهادىء
من وراء الآلام والذكريات. فما يكاد الصوت يذوب، ويوشك
آخر خيط يصله به أن ينقطع، حتى يقترح على صاحبه أن
يلحقا بالموكب. فلحقا به وسارا معه في حارات تحفها منازل
عتيقة متهدمة، وتعوقها بعض عربات الباعة، إلى أن تبدى منزل
قديم مفتوح على مصراعيه، مضاء (بالسكاوبات)، فأنهى
الموكب إليه، ودخل الحصان بمن حمل، ودخل أصحاب الطبل
والناي، بين زغاريد شجية، واحتفاء بهيج. واحتشد من أهل
الحارة نساء يشوبهن بعض رجال، فسأل محمود إحدى النسوة
وكانت وسط الرجال قصيرة عجوزاً :

— ما هذا الحفل ؟

— ختان ... العقبى لك .

— العقبى لى ؟ قالها فى تعجب فاذا رجل قصير فى أسما

ينظر إليه نظرة الذئب حين حاور الحمل ، قال : بتقول للست

عقبى لك ؟ عقبالها يعنى ليه ؟

— لا إنها هى التى قالت لى عقبى لك ، فأنا استغربت

هذا السؤال .

— يعنى يصح واحد أفندى زيك يقول لواحدة ست

عقبالك تتطاهري ؟

وكان صاحبنا ذكيا لبقا فرأى ألا فائدة من التفاهم ، فهي مقدمة تقليدية للضرب عند أفراد هذه الطبقة . فأثر السلامة وخشى العطب واستدار وسار وثييدا وهو يقول للرجل : لم أقل شيئا من هذا أبدا . وكان يتكلم في تأكيد وحسن نية ومضى معه صاحبه إلى الشارع الرئيسى فسأله صاحبه عن سر الانصراف فأجاب : لقد قرأت في نبرة الرجل نعمة الشر ، وقرأت في وجهه سياء التحرش ، ولا عجب فنحن الآن في الحسينية .

ويبدو أن التحرش والشجار سمة من سمات هذه الأحياء فالتاس فيها يتشاجرون في كل الميادين وبكل الوسائل . فهذا قتال في موضع السلام وطعان في غير ميدان الطعان وبغير ما تعارف عليه الناس من وسائل القتال والطعان .

هذا فقيه يقرأ القرآن في مكبر صوت فيدوى كلام الله في أرجاء الحى جليلا وقورا . وما يكاد يقف عند نهاية الآية حتى يقرأ فقيه آخر في الدكان المقابل من مكبر صوت آخر ، وهكذا تتصل القراءات فهذه آية من سورة الرحمن وتلك من سورة الحديد . . . وهكذا تتعاقب على الأذان آيات الرحمن والحديد .

كل هذا لا بأس به فنحن نسمع كلام الله من قارئين كبيرين يأتي كل منهما بخير ما عنده ، ونحن الرابحون في الحالين .

ولكن الذى به بأس أن أنصار الفقيه الأول عولوا على
افساد الأمر على منافسه ، فكان إذا انتهى من آيته وبدأ الآخر
فى التلاوة صاحوا وراء المكبر محيين فقيهم : الله . الله يفتح
عليك . الله يقويك .

ولم يلبث أنصار المنافس أن حذوا حذوهم فصاروا إذا
انتهى فقيهم حيوه بقولهم : يا حنين . يا حلو . أنت اللى
فيهم . فلم يلبث القرآن أن ضاع بين مظاهرات التهريج وصار
هو الآخر أداة تهريج فى أفواه من لا يفهموا منه ولا يقدرونه .
وعلى بعد من جلبة الفقيهيين وأنصارهما كان مكبرا آخر
يترنم فى هدوء ودلال بالحان مسجلة لبعض المطربات
الشهيرات . لم يكن وراءه إنسان يجمع أنصاره أو يجتمع عليه
خصومه ، ويشوشوا عليه وعلى الناس فنجوا من شر المهرجين .
ولكن ما هذه الحارة الطويلة النحيلة أمام المكبر المغنى ؟
وما هذه المقاعد الخشبية المصفوفة بها ، وما هذه المصاييح التى
تسطع فوقها . لنسر فيها شيئا علنا نظفر فيها بقارى . جديد
يحتفى فى أعماق هذه الحارة من تهريج المهرجين . كلا ستشهد
هذه الحارة التعسة شيئا تشهده مرة كل عام . ستشهد حفلة غناء
أو حفلة تمثيل . فى أعماقها مسرح قد نصب وعليه أشباح فتيات .
اقترب الصاحبان من المسرح فاقترح سيد أن يجلسا ليشاهدا
الرقص والغناء .

أى رقص وأى غناء ؟ قالها محمود وهو لا يقدر أنهما
سيقضيان فى هذه الحارة البائسة اليائسة ليلتهم الطويلة
غير نادمين .

أى رقص وأى غناء ؟ لقد كانت على المسرح فتاة سوداء
عجفاء ، فطساء الأنف ، مجمعة الشعر ، تهز هيكلها فلا يهتز ، وتبدى
أسنانها كأنها تريد أن تبقسم وتغنى بصوت مخنوق لحنا تافها
ولكنه مناسب لمقتضى الحال ، كما يقول علماء البلاغة ، ذلك أنه
من خلال أصوات وكلمات خافتة مخنوقة قد تبين الصاحبان
جملة بما تقول ، داتهما على أنها أحسنت الاختيار ، أما هذه الجملة
فهى (جر الشكل أصله عياقة متأخذوناش) أى جملة أنسب
من هذه فى حى الحسينية ؟

ويهم محمود بالانصراف فقد وجد المكان لا يلائمه ،
ولكن صاحبه يلح عليه ويتوسل فيوافق كارها ثم لا يلبث
أن يرضى ويهدأ .

لقد سمع من خلفه ضحكة مجلجلة مزعردة فنظر فإذا
امراة بدينة طويلة تتضحك وتتماجن ووراءها فتاة فى سن
الرابعة عشرة تقريبا عارية الذراعين ، شفاقة الثياب كثيرة
الدعابة والمزاح ، تشقان طريقهما إلى المسرح .

وانتهت السوداء من دورها وهبطت تجمع ما يجود به
المعجبون وكثرت سخرية محمود منها ، فإنها لم تعد إليه من كل

ما قرأ إلا قول الشاعر :

وجه الحبيب وحالى كلاهما كالليالى
ولكن صاحبه يقول له : إن بعض رواد الحارة ينظر
إليك فاحترس فربما كان للسوداء عاشقون تغضبهم دعاياتك .
فأجاب محمود : لا سيما وقد ذكرتهم الملعونة بجر الشكل .
أنظر جيدا لئلا يكون القصير قد تبعنا إلى هنا .

ولم يلبثا طويلا فى مخاوفهما فقد كفا عن الدعابة ، وكفا
عن الخوف ، وكفا التفكير فى وجه الحبيب ، وجر الشكل ولم
يبق فى ناظرهما واحساسيهما إلا فتاة الرابعة عشرة وهى
ترقص .

فقد استلقت على كرسى وجعلت أوصالها تتحرك وعضلاتها
تنقبض وتنبسط فى سرعة وحرارة ، ثم تضطجع وتسرف فى
الاضطجاع وتتحرك يمنا ويسرة ، ثم تقف وتلقى ظهر الكرسى
إليها وتحركه حركات وتغمزه غمزات . ثم تستلقى هى على
الأرض وتمثل حركات شائنة وتبعث فى الجو أصواتا داعرة .
ولم ينتبه الصاحبان إلا على منظر الكرسى طائرة فى الهواء
هاوية على رؤوس بعض المتفرجين ، والضرب بالعصى
والكراسى الذى لا يستثنى متفرجا ، صديقا كان أو عدوا .

أما الصاحبان فقد فرا من الميدان وقفزا الى المسرح ومن
ورائه وجدا للحارة بقية فاعتصما بها . وهناك وجدا بعض

اللاجئين غيرهم فسألا أحدهم عن سر هذه المعركة فقيل لهم إن عامل المقهى طلب من مجموعة من الزوار الريفيين اثني عشر قرشاً لأنهم ستة أفراد فامتنعوا عن الدفع ، فرد العامل على رئيسهم برأس في وجهه أسال الدم من أنفه فسرعان ما هوى أنصاره بالكراسي على كل من بالمقهى وخف لئلا تزلهم أنصار المعلم .

وكان الذي تعجب له محمود حقاً أن هؤلاء القوم لا يتحرون في ثورتهم إيذاء العدو دون سواه بل يضربون بمنة ويسرة بلا تمييز بين من يعرفون ومن لا يعرفون ، أو بين الإنسان والجماد . فالكراسي والمصابيح والناس ... كل هؤلاء سواء في استحقاق العقوبة إذا غضب ابن البلد .

ولم يجرؤ الصاحبان على العودة الى حيث كانا إلا بعد أن استيقنا أن العاصفة قد هدأت وأن السلم قد سادت فعادا ومحمود يقول لصاحبه : لو أن أحداً من زملائي رأى أني أقفز على المسرح ومنه أقفز الى ثمالة هذه الحارة لما نجوت من شره .

والآن يعود الهدوء الى الجمع السعيد — كما يسمونه — وحل الوثام محل الخصام . ثم أراد أعداء المعلم الانصراف فقال لهم العامل : كلا لا تنصرفوا الآن . انتظروا كرسي المعلم .

لقد عاد حديث الكراسي فهل ينشب شجار جديد قالها محمود فضحك منه جار له وأجابه بأن مدخنة الغاب يقال لطلبها

كرسى واذا كان هدية من المعلم قيل له كرسى المعلم . وقد صدق الرجل فيها هو ذا العامل مقبل بمدخنة الغاب على أعداء المعلم منذ دقائق وأصفياه الآن فيتبادلونها واحداً واحداً ، كأنها قبلات الصفاء يتبادلونها مع المعلم . أما توحة وقد كان هذا اسم الصبية الراقصة فقد عادت الى المسرح وجعلت تتقلب على خشبة المسرح وترسل تأوهات فاجرات قاطعها صوت خشن أجش يقول : خلاص يلا يا جدع أنت وهوه السهر انتهت مدته ، فسارت اليه المرأة البدينة الطويلة تنهذى فى خطوها وتمايل . ولكن هذا لم يثنه عن عزمه . فسارت اليه توحة لتتوسل اليه بجملها وفتنتها ألا يفض السامر ولكنه يأنى . . . وهكذا خلق رجال الحفظ من جبلة خاصة . فهم لا يميلون مع الهوى ولا يصدرن إلا عن أمر الرئيس أو حكم القانون .

لقد انتهت الليلة بعيد حادث الشجار وقبل اندمال ما أصاب المتفرجين من جروح وندوب . فلو تركت توحة تكمل دورها وكان قد قارب النهاية ، لما تدمر متدمر ، ولا استاء مستاء . وفجأة يعلو صوت البشير فقد ظفر المعلم بمـالم تظفر به النساء ، ظفر بانصراف الجندى وعاد من لدنه يقول لتوحة : استمرى فى الرقص . فسأله بعضهم ماذا عملت .

فأجاب : أعطيته خمسين قرشا

وصدعت توحة بالامر فاستمرت ترقص متعمدة اظهار ما ظل خافياً من جسمها ، وما أقله .

فاذا انتهت بين تصفيق الاستحسان ، بدأت تجمع الهبات .
فجمعت مبلغا لا بأس به من رواد هذه الحارة ، وكانوا جميعا ،
عدا محمودا وسيدا ، من أصحاب اللاسات والجلابيب .

وكان الليل قد أوغل ، فاقترح محمود على صاحبه الاكتفاء
بما شاهدا فاقتنع بعد حوار طويل ، ثم وقفوا وصفق محمود
لاستدعاء عامل المقهى (أو شيخ الحارة) كما طاب له أن يدعوه .
وسار الصاحبان وما كادا يبلغان الشارع الرئيسى ، حتى
وجدا شجاراً جديداً . لقد وجد رجل مع فتاة فى حالة مريبة ،
وكانا فى الطريق العام ، فرآهما أخ لها وحدث هذا الشجار .

سمع محمود هذه القصة ، ولكنه لم ير المتشاجرين لشدة
الزحام ، ثم رأى رجلا مسنا عصبي المزاج نحىلا يشق
طريقه فى وسط الجمع المحتشد ، فى عزم وإصرار ، ويندفع إلى
قلب الممعنة فيخلى له القوم السبيل ، ويستطيع محمود أن يراه
يضع أحد المتشاجرين ، ويصق فى وجهه . ثم يلتفت إلى
الرجل المسك بتلابيبه ويقول : « إنه ولد قليل الحياء ؟ ... »
أولاد الناس الطيبين يفعل بهن هذا ؟ . ولكن . لأجل
خاطرى ، أتركه فهو عيب . . . مصيبة والسلام ! ،

فسرعان ما أخلى سبيل الرجل المستهتر ، وأخلى سبيل الفتاة .
فرآها محمود عن كثر . . . فتاة سمراء قائمة ، قصيرة الثياب ،
رثة الهيئة ، دميمة المظهر . وأما فتاها فكان رجلا بدا فى جلباب

أيض ، وجسم ضخم ، لم يكد يرى محمودا حتى أطرق برأسه
إلى الأرض .

ولكن محمودا استطاع أن يراه بوضوح وهو في قبضة
الرجل العصبي ، واستطاع أن يلمح تلك النظرة العجيبة ، التي
حيرته ولا تزال تحيِّره : ترى أهي التفاهة أم البلاهة ؟ المكر
والدهاء أم البساطة والطيبة ؟

الفصل السادس

يذبوع النعيم

نشوة الحب هي نفحة النعيم . فجمال الناس والأشياء واعتدال الجو ، ووفرة المال ، كلها لا تغنى عن هذه النشوة شيئا ولا تجلب من دونها سعادة أو نعيم . هذه النفحة هي التي تجعلنا نرى جمال الأشياء والناس ، وبذا تفتح لنا آفاقا من السعادة ، وعوالم من النعيم لم تكن نفقها أو ندرى عنها شيئا . لقد رأى محمود مقهى بلديا كما مر بنا ، فبهرت بهجته ورواؤه ، لقد رأى الأسماك وضئته والمقاعد الخشبية بهيجة ، واللاسة أنسب الأزياء . وسمع ألحان الناي ، فوجدها تترجم عن أملة الباسم الهادي ، من وراء الآلام والذكريات . ورأى رقص الفتيات الساقطات في وسط الرجال الأشرار في تلك الحارة النحيلة الطويلة في حي الحسينية ، فطرب له واطمأن إليه . ورأى حسينا في موقف لا علاقة له بكل ما روى من قصص وأساطير فعجب وطرب .

لقد كان سعيدا بهذه الليلة أيما سعادة . تتبع سعادته من حميم نفسه ، فتسبغ على الناس والأشياء نورا وحياء ، وعلى الحياة جمالا وسحرا .

فاذا أردت تتعمق أسرار هذه السعادة ، فسل من رأوه في
أصيل ذلك اليوم جالسا معها في الشرفة ، وفي يده كتاب وهي
تتلو عليه بعض المقطوعات الفرنسية ، استعدادا للامتحان ،
الذي يكرم فيه المرء أو يهان .

لقد كان صاحبنا في هذه الأيام ، يتردد على منزل سونه بين
الحين والحين ، يراجع معها ما تحتاج من علوم ، ويرى في هذه
الساعات لذة ونعما ، وإن كان فيها أمينا في عمله وخلقه ، كما هو
أمين في شغفه وحبه . فلم يحدث يوما أن حدثها في غير موضوع
الدرس ، ما لم تطلب ذلك وتصر عليه وعندئذ يحدثها حديثا
موجزا متحفظا في الشعر والأدب ريثما تستجم ، وتعاودها
الرغبة في الاستذكار . ولكن هذا اليوم كان يوما ممتازا ، كتب
عنه في مفكرته مايلي : (لقاء مفاجأة سارة ... أسعد أيام
الحياة) فاذا كان من سونه حتى سحرت هذا الرجل الذي
رأيناه أول الامر متزمتا واجما وسمعا عن جده ودأبه ؟
لا شيء أكثر من أنها فتحت حقيبتها وأخرجت منها قصاصة
قديمة من صحيفة يومية . ما هذا ؟ قصيدتك التي نشرت
بالأهرام منذ ثلاثة أعوام . قصصتها في حينها لأطالعها في
خلوتي بين الحين والحين .

فهل كذبه قلبه حين كان يقتاده إلى منزلها كل مساء ؟ وهل
خدع في حبها ؟ كلا . . فانها تبدو مخلصه صادقة وقد أثبتت
ذلك بالبرهان . فقد كانت تحتفظ بآثاره قبل أن يكون هناك
أمل في استئناف المودة واللقاء .

وخطر له خاطر ثم ذكر هذين العصفورين الغردين في منزل سامى بك بالجيزة ، ينوحان بأشجى الألحان حين يفترقان ، ويسكنان عن التغريد والنشيد حين يجتمعان . وفاضل ووازن ، وآثر آخر الأمر أن يظل طائرا ، غردا لا يكف عن الانشاء والغزل .

وفي الليلة التالية ذهب إلى سونه كعادته ، ولما أجهدا العمل وطلبت منه أن يحدثها عن صاحبه حسين ريثما تعاودها الرغبة في الاستذكار ، حدثها بما كان من شجار . وبما رأى وشاهد في الطريق العام ساعة الانصراف وحدثها بأنه صار يراه ذا شخصيات ثلاث : شخصية صاحب اليخت ، وهي شخصية رفيعة منيعة ، رفيقة مع ذلك رقيقة . وشخصية الأستاذ الجامعى حين يلقي محاضرة ولوفى موضوع مجوف ، فقد كان استغراقه فى الموضوع وطريقة القائه تشيران إلى عقلية طال درسها وفهمها لشئون الدين أو الدنيا ، ولها فيها آراء ونظريات واكتشافات تلقى جميعا بهذا الأسلوب الهادى الرزين وكان ليس فى الأمر جديد .

وشخصية ثالثة أمعن فى التواضع من الثانية . شخصية تحتل الضيم من الزملاء ، وترد عليه بابتسامة عريضة ، تافهة بلهاء ... يتندرون به فلا ينبس ببنت شفه ١١ وكأنما أغراهم هذا الاغضاء فتمادوا فيه إلى أبعد الحدود . وقد بلغ من أحدهم وكان صلفا متعجرفا أن ينهر حسينا ويقول له : إما أنك مخبول . أو تظننا مخبولين . ما هذا ؟ نخت ١١ مريبة ١١ انجلترا ١١ وفى هذه

المرّة يرد حسين بعد طول صبر وطول سكون فيقول : أليس هذا خيرا من أن أتحدث في سير الناس ؟
لم يحضر إلى عمله في صبيحة المولد . وفي اليوم التالى جاء معصوب الرأس ، وظن أنه مريض ، فلما سأله أخوانه عن سر غيابه وسر هذا الرباط ، أجاب قائلا : لقد سقط المنزل علينا ونجونا بأعجوبة . فقال له أحد أخوانه : مالك والسكنى فى المنازل المتهدمة ؟ ولماذا لا تقيم فى يمتك أو عمارتك ؟ فىنظر إليه حسين نظرة الضراعة التى تقول : كفى كفى . لقد أتانى ما كفى .

وفى اليوم التالى أتى سليما معافى وفى عينيه بريق العز والمجد ، ذلك الذى رآه محمود حين كان يستمع إلى قصة الينخت أول مرّة ، كان كتفاه مرفوعين فى وقار وجلال ، وما يكاد يبلغه الساعى وفى يده ورقة من المدير ، حتى يذهب هذا البريق الرقيق وتحل محله روح من الضراوة والقيسوة ويتبدى فى شخصية رابعة هى شخصية حسين المحارب .

فما يكاد يبلغ مكتب المدير حتى يسمع به ضجيج وعجيج ، فاذا هرع إخوانه إليه وجدوه ثورا هائجا ، كما شبهه محمود الريفى . فقد كان شديد الثورة يهاجم المدير باليد واللسان ولولا أن كان بينهما مكتب عريض ، لحدث مالم

يكن في الحسبان ، ولكان هذا المدير الآن في خبر كان .
كان إذا هاجمه حسين من يمين اعتصم بالشمال ، وإذا تبعه
إلى الشمال تاب إلى اليمين . ولم ينقذه إلا مرءوسوه حين أتوا
على صوت الثورة الهوجاء . وأخيرا هدأت العاصفة ، وسكن
حسين فاتصل المدير برئيسه فطلب هذا أن يوافيه حسين ،
وأخبر حسين بذلك ، فعاودته ثورته وعلا صوته وخشى الزملاء
أن يعود اندفاعه سيرته الأولى ، فحملوه في رفق وكياسة على
مغادرة حجرة المدير فغادرها . . . واختفى .

كان ثورا هائجاً وبحراً مائجاً ، يرغى ويزبد ويقول بأعلى
صوته : « الوظيفة على جزمى أنا أكسب في اليوم عشرين
جنياً . » أما الكلمات التي وجهها إلى المدير فلا يليق ذكرها
لأنها بلغت من النبوة والفحمة مدى لم يتعوده الناس من
بعضهم البعض ، فضلاً عن الرؤساء من المرءوسين .

وكانت هذه الثورة حدثاً عجيباً من حسين المسالم ، الذي
يهاجم كل يوم فلا يدافع ، ويرد بابتسامة تافهة بلهاء ، أو برد
خير منه الابتسامة التافهة البلهاء . ولكن زميلاً قديماً
حصيفاً يعلق على هذا الحادث قائلاً : لقد لاحظت أن هذه
الثورة تناب حسينا مرة كل سبع سنين وتستمر أسبوعاً
تقريباً ، وبعده يحتمل الإهانة والأذى سبع سنين أخرى ، ليثور
أسبوعاً آخر .

وعاد الموظفون إلى المدير فوجدوه في إغماء شديد ،
فأحضروا له بعض العقاقير ، وجعلوا يفكون عنه الأربطة
والاثواب ، ويدلكونه بالكولونيا حتى استفاق ، وكان
الأيذان بذلك أن أجهش بالبكاء فاذا استوفى منه حظه قال :
« يا أخوان لو أن ما حدث اليوم كان من غير حسين لكان
الخطب . ولكن الذي لايهون هو صدور هذا من حسين —
لأنه إذا أقبل على في حجرتي رفع يده إلى جبهته بالسلام
العسكري وسار وثيدا باسمي في ذله حتى يبلغني ، فيوسع
يدي ثمًا وتقبيلا ثم يعود بظهره القهقري حتى يبلغ الباب ،
فيخرج منه بظهره ولا يزال يتقهقر . وما تزال يده في مكانها
من جبهته حتى يختفي عن الأنظار .

شخص تبلغ منه نفسه هذا الهوان لا بد أن يكون
شخصا خطرا ... كان هذا رأيي فيه دائما وقد تحقق ما رأيته .

بهذه الأحاديث كان يرفه عن سونه عنا الدرس بين
الحين والحين ، ثم يستأنف معها العمل بعض الوقت ويغادرها
على أمل اللقاء في الغد ، دون أن يطيل عليها خشية أن يشير
مخاوف أخيها وشكوكه ، وإن كان محمود لا يشير المخاوف
ولا الشكوك في نفس من يعرفه حق المعرفة .

البقيـل السابـع

اعتدال الريح

سبحان مقسم الأرزاق . حسين في ثورة وهم ومحمود
ماض في زورقه الحالم إلى الأرض الموعودة .

لم يمض يومان على حادث الشجار ، حتى تغيب حسين في
اجازة مرضية . وأمر الاجازات المرضية في هذه الاحوال
مفهوم ، فهي لا تعنى المرض على الاطلاق . يشهد بذلك أن
رئيس المدير اتصل به تليفونيا وذكر له أن حسين زاره في
منزله ، ويبدو أنه (جدع غلبان وطيب جدا ياسيدى الحق
الى عليه على أنا) واجابه المدير : « العفو يا سعادة البك ..
المسألة منتهيه تماما .. متشكر جدا يا سعادة البك ، . ولذا
فليس ثم ما يدعوننا إلى القلق على حسين فهو بخير ، وريثما يعود
سنسبح مع الشاعر الولهان في زورقه الفضى علنا نبلغ معه
الأرض الموعودة .

لقد كان صاحبنا يعيش في عالم من اللغو الجميل ، شأن
الفنانين وأدعياء الفن ، كان يسير بسمته النحيل الطويل ،
وخطواته الوثيدة وفي عينيه النجلاوين تحت حاجبه الكشيف
معنى الثقة بالنفس ، التي هي مصدر كبريائه الباطن ، وتواضعه
الظاهر . فهو واثق من قدرته وكفاءته . متروك مع ذلك بمن

حرموا هذه القوة الخارقة التي من الله عليه بها ، معتقدا في قرارة نفسه أنه مدخر للجلى ! وأن له يوما تعرف فيه قدرته ، وتنجلي عنه غمrote . وقد يراه بعض الناس مسرفا في التواضع ، ويراه آخرون مسرفا في الضحك والاستهتار ، ولكن لتعلم أن وراء تواضعه غرورا ، وأن وراء مرحه ألما دفيناً ، لا تخطيء أن تراه رأى العين إذا صحبته يوما كاملاً . وقد كان لغروره وألمه فضل عليه فقد جنباه مهالك كثيرة ، تردى فيها اخوانه ولداته ، من اندفاعهم وراء نزوات الشباب ، ووقاه أن يدنس سمعته بما لا يليق بالفنان الموعود .

وهو الآن سعيد بألمه ومرحه ، وتواضعه وغروره ، ساجد في زورقه الفضى على أمواه الخيال ، يلقي بين الحين والحين نظرات رثاء على الشاطئين ، حيث الناس يعتركون في غير معترك ويختصمون في غير محتصم ، ويحيون حياة تافهة ، ليس فيها حب ولا خيال .

أما هو ففاض في زورقه الحالم إلى الارض الموعودة . ولقد تآذرت الظروف على إشباع خياله وتحقيق آماله في هذه الايام . فبالأمس كان مع سونه وكانت معجبة بشعره ، تنشده بلذة وشغف وترجوه دائماً أن يوافيها بقصائد جديدة ، وكانت اذا رددت بعض اشعاره أحست فيها بحياة نابضة ، وخيال مبدع ، وجمال بارع ، فحسب أنه صاحب عبقرية لم يتبينها

أول الأمر . . . وما حسب أن الحياة النابضة والخيال المبدع
ولجمال البارع . . كلها من نفحات راويته الفاتنة الحسناء .
لا بد إذن أن يصدر ديوانا من الشعر يبذ فيه المتقدمين
والمتأخرين .

وكأنما كانت الظروف ممهدة والطريق إلى المجد معبدا
فها هو ذا بوزارة الأوقاف عائد بعد حديث بالمسرة . . .
أشد ما يكون سرورا وسعادة .

إن سامى بك يدعوهُ إلى لقائه في الغد (الجمعة) لتناول
طعام الغداء على مائدته وليتحدثا شيئا في شئون الأدب .
وهكذا كان النجاح يسعى إليه من كل جانب . . . ولقد
أكبر في سامى بك الأديب الكبير أن يدعوهُ للحديث في
الأدب ، وهو كاتب الأحكار في وزارة الأوقاف . إن ديوانه
الحالده سيحظى من غير شك بمقدمة رائعة لسامى بك ، الناقد
الخطير والكاتب القذ . وسيثير ضجة كبرى في الصحف والمجلات
الأدبية . . . لقد اعتدلت الريح وعرف قدر الشاعر . فإذا
يقول في هذا أبو التوابع والزوابع ، ومن لف لفة من المديرين
المغمورين ، والأذئاب الجهلاء . . . ؟

وذكر وهو مستغرق في هذا الحلم دعابة سامى بك له
بالمسرة ، إذ سأله قائلا - كيف حال أبي التوابع والزوابع
الآن - وذكر رده عليها بقوله : خرس التوابع فسكنت

الزوابع . . وضحك سامى بك طويلا ، ثم لم يلبث صاحبنا أن همس الشيطان فى أذنه : ألا يجوز آخر الأمر ، أن احترام سامى بك إياك ، ليس لموهبة توافرت فيك ولا كفاءة بدت منك ، وإنما هو وفاء وإكرام لهذا الثاوى هناك على بعد نيف وخمسين ميلا من القاهرة ، منذ نيف وربيع قرن من الزمان ؟

أهو التقدير لشخصية محمود ومواهبه أم الوفاء لآليه ؟ هذه هى المشكلة . وليس يحفظ محمودا أو يغضبه أن يبنى أحد لآليه طول هذه المدة المديدة . بل على العكس إنه ليسره ويطمئنه أن يرى فى هذا الزمان أثرا للفضائل والمعنويات . ولكن هذا الوفاء على نبالته وتقائه بسعد محمودا من حيث يؤله ، فهو يكرم محمودا — باعتباره ابن رجل فاضل — ويؤله إذ يشعره بأنه يعيش كلاً على ذكرى أبيه ، دون أن يكون له فضل خاص من علم أو أدب .

نحن الآن فى يوم الجمعة صباحا فنراه يستعد ويتأهب لهذه الفرصة الذهبية التى تسعى إليه وكان ينوى أن يسعى إليها ، فهو يريد أن يستأنس برأى سامى بك فى طبع الديوان ونشره ، والتمهيد له فى دوائر الأدب والشعر .

— الأستاذ موجود

نعم : تفضل يا فندم . ودخل محمود غرفة الاستقبال فما

أعجب ما رأى !!! رأى سمير بك التابعى وسامى بك جالسين جنباً إلى جنب فقال له سامى بك مبتسماً : لقد وافانا أبو الزوابع والزوابع قبلك بنصف ساعة .

آلمت هذه الدعابة محموداً فانها جديرة أن تعيد إلى ذاكرة المدير ما غاب عنها من ألم وحزن ، ليس لهذه الدعابة محل الآن بعد أن بدأ المدير يقرب محموداً ويبعد بطانته القديمة . . . ولكن ماذا عسى أن تفعل هذه التذكرة من سامى بك ، الرجل المرتجى عند النواب المفتقد عند الشدائد ؟

ولم يطل الأمر بحيرة محمود وألمه فقد ابتسم سمير بك ابتسامة وضیئة ونظر إلى محمود قائلاً : أو هكذا اسميتى ؟ فيجيبه محمود على الفور باسماء : وعلى متن الزوابع جئت إلى القاهرة .

سامى بك : ألا تعرف أن سمير بك صهرى ؟

لقد ود محمود فى هذه اللحظة لو ساخت به الأرض ، فقد كان يتندر ببعض مواقف سمير فى ندوة سامى بك ، دون أن يمر بذهنه أن رجل الأدب والفن صهر مدير الأجر والاحكار .

ثم يتكلم سامى بك فى رزانة وثبات ، شأنه دائماً فى الحديث ، فيقول : وقد جمعتكم لتتصافيا ولا يكون فى نفس أحدكم شيء من سوء أو رية بالآخر . فيجيب سمير : أوكد لسعادتك أنه لم يبق فى نفسى شيء من شك فى محمود وكرم

خلقه .. فأنا ، بعد الذى ذكرته عن تاريخه وقصة حياته وأدبه
وعليه ، ندمت على ما أصابه على يدي من عنت . وأدركت
أنى كنت مخدوعا فى بعض المروسين ، فقد كانت الأخبار
تردلى منهم مخالفة تمام المخالفة لما علمت الآن . والتفت إلى
محمود وقال : وإنى أعتذر لك يا بنى ، وستكون عني راضيا بإذن
الله .

فنظر الشاعر فى دهشة وغبطة إلى سامى بك ثم إلى
سمير بك وقال : أنا متشكر جدا ... ولكن شكرانه
وعرفانه بالجميل كانا باديين فى حياته الشديد الذى طغى
عليه فى تلك اللحظة ، وحبس لسانه عن أن يؤدى للرجلين
الكرمين ما يستحقان من شكر .

ولا يكتفى الرجل النبل سامى بك بذلك بل يقول لسمير :
وما رأيك فى رفع الغبن الذى أصاب محموداً ؟
- سأرفع كل غبن وسيكون بمحمود راضياً عني إن
شاء الله .

ونسعه بعد بضع دقائق يتلو على الرجلين العظيمين
قصيدتيه الأخيرتين ... وعند ما يفرغ من قراءتهما يقول له
سامى بك : قصيدتان رائعتان حقاً ،

وأما سمير فيظل مطرقاً بعض الوقت ثم يخرج منديلاً من

جيبه يحفف به دمه . . . لقد كان رجلا مرهفا . وكان صاحب صدمة قريبة على ما يبدو .

فيتشجع محمود ويسأل سامى بك فى شأن الديوان الذى أزمع طبعه فيجيبه : إذا كان ديوانا من هذا المستوى فانه لا شك سيخرجك من غمرتك ، ويقسح لك مكانا بين شعراء الصف الاول فى هذه البلاد . . . وانى اعدك بالمساعدة والتشجيع .

وينصرف محمود فى الأصيل وهو يذكر صاحب الفضل عليه فى هذا النبوغ الجديد ، فى الشعر والفن . . . ولكنه عندما يبلغ الباب يرى الطائر ينغردان . . . فى تجويد واقتان ، محدثين بنعمة الشوق والحرمان . ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو مع الشاعر الهيمان ، فقد كان الدهر له بالمرصاد ، ففجع فى أسبوع واحد فى حياة حسين وحب سونة .

أما حب سونة فقد تجلد له ، وصبر عليه صبرا لم يكن منتظرا من فنان أودعى فن ، بل لم يكن منتظرا من إنسان أيا كان . فقد كتب عنه فى مفكرته : (ه يونية — صدمة زال أثرها نهائيا) فلنعب هذه الصدمة ما دام أثرها قد زال نهائيا إلى الصدمة التى ليس لها بها قبل ، أعنى « وفاة حسين » .

الفصل الثامن

ضحك الدنيا

« حسين مات ،

هكذا قال النعي وانصرف إلى الحجرات الاخرى ليبلغ
النبا الفاجع ، الذي وجم له الجميع فترة ، ثم قال أحدهم : كلنا
لها . وقال آخر : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسأل محمود زميلا له قائلا : هل كان مريضا . فأجابه
« لا أدري فقد كان في اجازة » : وكان محمود قد شغل في
هذه الايام عن حسين بعد إذ اشتمل عليه هذا الهوى
الجديد وتمكن منه ، وسار حظه في إقبال ونجته في صعود .
ولكن قولة (حسين مات) أصمت فؤاده ، ومرقت إلى
أحشائه وأثارت فيه كامن الألم ، وهادى الشجن .

فقد كان الموت عنده معنى آلم وأعمق منه عند سائر
الناس . فهو ليس بمجرد سنة من سنن الوجود ، أو ناموس من
نواميس الحياة ، بل هو الشبح البشع الرهيب الذي اقتحم عليه
مهده ، وقبض أباه في عنفواته ، عندما بدأت تتبسم له الحياة ،
وتجزيه عما أسلف من جهاد وقدم من خير ، نجاحا وتوفيقا
يبشران بمستقبل باهر فأحال الخصب جدبا ، والانس وحشة ،
والنور ظلاما ، والعرس مأتما . وعاشت هذه الاسرة الضعيفة

من بعده... سرورها تكلف، وأنسها تأسف، وزادها تعفف .
ولقد ائتمر عليها مع موت العائل والسند شبح قوانين ولوائح
تحرم الحفيد تراث الجد إذا حرمه القدر حنان الأب وجهاده،
فإنما هذا التراث للأعمام القادرين على الكسب، لا لأطفال
أتعسهم القدر وطاح بأبيهم، وظهر أنهم فال سىء... لقد
حرموا رحمة السماء فاستحقوا غضب الأرض .

وذكر حنان جده الذى كان أرحم بأحفاده من واضعى
القوانين واللوائح ، فأنزلهم منه منزلة أبيهم ، ووقف عليهم
بعض ماله القليل ، فدمعت عيناه للذكرى الحزينة .

هذا هو الشاب الطروب المرح الذى يحسبه من يراه
أسعد الناس وأبعدهم عن جد الحياة وغمومها ، فحذار أن
يخدعك مظهره ودعابته ، فهو ابن الألم والعيش المرير ،
ولكن الطبيعة منت عليه بنعمة الفكاهة والمرح لتغالب
هذا الألم وهذه المرارة ، اللذين يوشكان أن يقضيا عليه لو
تركا لشأنهما .

(حسين مات) يا للحسرة ويا للبلاء إنه مما بضاعف ألم
محمود وندمه حين سمع بنعى صاحبه ، أنه كان يهزأ به فى بعض
الآحيان ، ويروى أخباره فى شىء من التهكم والاستخفاف ،
ويدعوه لإلقاء المحاضرات ، ويجمع السامعين الساخرين ...

كل هذا لا لذنوب اقترف ، أو خطأ ارتكبت ومع ذلك فقد كان رحمه الله يقابل هذه المواقف بابتسامة الرضى والمسائلة .

مات حسين — كما قال النعي — وخلف صاحبه حزينا محسورا نادما مستغفرا .

وها هو ذا محمود بعد انتهاء موعد العمل يغادر ديوان الوزارة وفي يده قصاصة من الورق وفي يده الأخرى منديل يجفف به دمه ، فيجد تراما مقبلا فيتعلق به ، ويمضى الترام ثقيلًا عليًا كأنه قلبه الكليل العليل .

ها هو هذا قد وصل إلى ميدان الحسنية فنزل عن الترام وانتحى جانبًا ليحفف دمه ، ولكنه أجش بالبكاء . ثم مضى في بعض الشوارع ، ثم ألقى نظرة على قصاصة الورق التي بيده ودلف إلى حارة مكتوب عليها (حارة الحلة) . ولو كان محمود في غير هذه الحالة الباكية المبكية لعجب وطرب من أنه لا يرتاد مكانًا جديدًا ، بل مكانًا كان يتجول فيه مع صاحبه الريفي في ذلك المساء ، ولعلم أن ليلته تلك لم تذهب عبثًا . ولكنه يمضى لا يلوى على شيء وفي يده قصاصة تنبئه بالعنوان وتجاوز ذلك المنزل الذي كانت به حفلة الختان . وبعد ثلاثة منازل كان المنزل المنشود . فتثقل خطاه وتخورقواه ، وكان الثلاثين عامًا التي انقضت على وفاة أبيه ، ساعة أو بعض ساعة .

وبعد ذلك يقف في الطريق .
ويستوقف فتاة في زى المدارس مقبلة على المنزل : أهذا
منزل حسين أفندى مسعود
— بابا ؟

وعرفها الباكى الحزين فانها نعمت من غير شك ، تلك التى
قابلها مع أبيها ذات يوم قرب ميدان الملكة فريدة وقال أبوها
إنها من خليلاته . ياعجبا أن الفتاة ليست محزونة ولا باكية بل
أنها لتدهش من حزن الزائر وبكائه . فتسأله : مالك ؟ خير
إن شاء الله .

فيطيب نفسا ويثلاج صدرا ويسألها : كيف حال بابا ؟
فتجيبه . تفضل لقد عاد من دفن تيتا .
— تيتا ماتت ؟ — نعم — كم عمرها — ٩٠ سنة —
البقية فى حياتك .

ثم مر بصحن الدار القديمة فرأى ثلاث صديات أخريات
لهن جميعا ذلك الوميض الذى يتلألأ فى عين أيهن . فليس
من شك فى أنهن بناته . وصعد الدرج المتهدم ودخل إلى
حجرة بالطابق العلوى وفى صدرها رأى الفقيد العزيز ،
حسينا بلحمه ودمه . جالسا مستغرقا مفكرا . . . أو أنه كان
يبدو كذلك على الأقل .

اطمأن محمود بعد أن واسى حسين بكلمة تقليدية مقتضبة ،

فقد كان العزاء لونا من المجاملات التي لا يحسنها . وبعد أن قضى بعض الوقت ، استأذن في الانصراف ... وتبعه إلى خارج المنزل شاب يلبس جلبابا وطربوشا وسترة . يبدو أنه قريب الأسرة أو أحد أفرادها فلنستمع إلى حيث محمود معه .

محمود : هل لحسين أبناء ؟ الرجل : ليس لديه ذكور ولكن لديه أربع بنات .

ومن هذا الرجل النحيل الجالس إلى جواره ؟
سأل هذا السؤال وهو لا يشك في إجابته فقد استنتج أنه أبوه لا محالة . أليس هو الرجل الذي صفعه ليلة المولد ثم قال لخصمه : اتركه لأجل خاطري فانه عبيط . ولكن المجيب مع ذلك علمه ما لم يعلم ، قال . إنه عم مسعود الملا . أبو حسين لقد كان هذا الرجل قبل أن يمرض ضنخما جدا ... كان أسمن من حسين . ولكن المرض يهد الجبال .

— وهل لقبه الملا ؟

— كلا إنها مهنة . كان يدير آلة لرفع الماء (طلبية) في مسجد الكردي فلما أدخلت المياه إلى المسجد ترك هذه الوظيفة وظل اسمه مع ذلك عم مسعود الملا .

— لم أكن أحسب أن لحسين أربعة بنات ، فقد حسبته أعزب لم يتزوج .

— إنه في الحقيقة في حكم الأعزب لأنه يبعث زوجته بغضا شديدا ، لذا فهو يهجم كالأعزب الضليل ، ويرج بنفسه في مشاكل كثيرة . وفكر محمود وهو يستعرض أباه وبناته ومزله فكر في اليخت والأربعين عادة بمنزل الحلية وشركة الطيران وأسطول الولايات المتحدة .

وذكر تلك الشهادة الطيبة .. التي لا تتم عن شيء آخر ، سوى أنه دفع لطبيب شيئا من المال ليذكر أن صحته جيدة تسمح له بقيادة واپور بخارى بحرى ، ولم يخالف الطبيب ضميره ، فصحة حسين غاية في القوة والمناعة . واستغل هذه الشهادة للتدليل على صدق ما يروى من أساطير وقصص .

هذا هو حسين قد وضح في ذهن محمود وبدأت شخصيته المستغلقة على الكثيرين ، كتابا مفتوحا تستطيع أن تلم به في يسر وسرعة .

إنه ابن عم مسعود الملا ، وهذه النسبة وحدها هي صاحبة الفضل في تكوين هذه الشخصية على النحو الذي رأيت . فحين يشعر بها في أعماق نفسه وصمة ضخمة ، لا بد من تغطيتها بالأكاذيب الضخمة .

فأصبح صقر المنشأ والفقر ، عراقة فائقة وثروة متدفقة . وهو فاشل في نسائياته ، فقد فشل مع سونة ، ومع الأرملة

الحسناء ... وهو الذى كان يقول لمحمود : أضحبنى فى جولاتك ،
فسترى البرهان ، وليس الخير كالعيان . وقد رسب حسين
رسوبا مخجلا فى كل امتحاناته النسائية فى الحياة ، فجعل لنفسه
فتاة فى يخته ، وأربعين عادة فى قصر ، وعرف لنفسه فتنة
لا قبل لبنات حواء بمقاومتها . ومضى على هذا النحو يعوض
عن فشلة ونقصه بالاغراق فى وصف نجاحه وكفاءاته .
وهو ناشئ فى حى وطنى ، مستمع إلى الفقهاء والوعاظ
فى المساجد ، قارئ لكتاب ألف ليلة ، وقارئ بعض
القصص فى الادب الانجليزى .

فاستحال حى الحسينية إلى (ماى فير) أنخر أحياء لندن ،
واستحال عريف الكتاب مريية سكسونية ، واستحالت
القصص التى قرأها إلى مغامرات قام بها ، وكان البطل
المظفر دائما .

أما الفتاة التى لم يفشل فى الاستيلاء على قلبها وحبها واتخذ
ذلك برهانا على كفاءته فى الغزل فهى ابنته نعمت .
ولقد اشترى سيارة أيام الرخاء مما ادخره من راتبه فى
السبع سنين ، ولا سبيل للشك فى امتلاكه هذه السيارة ، فقد
رأى محمود اسمه على الترخيص . . فإذا حمل حسيننا على أن
يكلف نفسه مالا طاقة له به .

ربما استلزم ذلك حبك قصص مغامراته ، والبأسه ثوب

السليل الاكرم للاجداد الاجداد ، كما قد حسبه محمود
أول الامر .

أما المرأة التي روى معها في المولد. فكانت شيئا مشاعا ،
يشترى بثمان معلوم ، وقد رؤيا في ركن بالطريق العام وقال
من شاهدوه انه كان ينظر إلى المارة مبتسما وكأنه يفتخر أو
يتحدث بنعمة الله .

فهل هناك من آية على فشله في نساياه من هذا الفخر ،
الذي أوشك أن يدمره لولا صفة وتغلة من أبيه .

وأخيرا وليس آخرا فهو من حي الحسينية ، حيث يكثر
استعمال كلمة (خدامك ومحسوبك إلى آخر هذه الالقاب)
لذا فهو يسمى نفسه (خدامك حسين) .

هذا هو صاحبنا ، مثال حي لما يسميه علماء النفس
(مركب النقص) ، لقد فهم وقرأت طلاسمة بعد أن كانت
غامضة مستغلقة وعرفت بواطنه وظواهره . ولقد كان يظنه
الجميع لغزا لا يحل فعادت إلى محمود ثقته في قوة فراسته
ونفاذ بصيرته .

وتمر الايام فيعود السر إلى استغلافه ومناعته ، تتحطم عليه
النظريات والتأملات دون أن تنفذ إلى صميمه أو تصيب
جوهره . والحق أن فهم حقيقته من أشق الامور ، فانك لا تزداد

هنا قربا إلا لتزداد منك بعدا ، ولا تزيد بها علما إلا زدت
بها جهلا .

وبعد فمن حق من نعى حسينا أن نعرف به وننوه عنه
فهو رجل مسن خفيف لا يخلو من ظرف ، يتلقى الاشاعات
من هنا وهنا ، وينثرها ذات اليمين وذات الشمال ، من غير
تحر ولا تثبت . ولعله يريد بذلك أن يلفت اليه الانظار
ويكون دائما رجل الساعة وفارس الميدان .

الفصل التاسع

عود على اليخت

لم يأت أحد من الزملاء للتعزية حينما قيل إن حسين مات
فماذا استخف محمودا كل هذه الحقة ، وطار به إلى منزل
الفجيعة . وما الذى قعد باخوانه عن التعزية والمجاملة التقليدية ؟
أما خفة محمود وفزعه للوفاة ، فسل عنها تاريخ حياته . وأما
قعود الاخوان ، فسل عنه ذلك اليوم المشهود ، الذى يتكرر
مرة كل سبع سنين ، يوم أغضب حسين الرئيس . وإذا كان
من الناس من يقولون : الحى أفضل من الميت ، فمنهم أيضا
من يقولون . الرئيس خير من المرووس .

ويعود حسين فى اليوم التالى ، فيقابله اخوانه مقابلة حارة
فى سخريتها . . . فالحق أنهم حيوا هذا المبعوث الجديد ، تحية
مسرحة صاخبة . ولكنه لا يحفل بهم وبسخريتهم ، بل يتوجه
إلى محمود وأمارات الألم والضيق لا تزال مرتسمة على محياه
ثم ينتحى به جانبا فيشكره ويطنب فى مدحه والثناء عليه ثم
يقول فى يأس واضطراب : إنى كما ترى فى غاية الألم والشقاء ،
ولولا إيمانى بالله لانتحرت . . . وتوقع صاحبه أنه محزون

لفراق أمه ، فحاول أن يرفه عنه ويواسيه ، ولكن حسينا يعرب
عن صبره وتجلده لسنة الحياة وناموس الوجود ، فليس لأحد
يد في قضاء الله ، ولكن متاعبه الحق التي كسته هذا الثوب
الكثيب المضطرب تتضح بما قال بعد ذلك : « انى أحبتك من
يوم عرفتك ، ولا أزال أراك الصديق الصدوق ، الذى يركن
إليه ويعتمد عليه . وانى أطلب رأيك فيما سأقصه عليك من
متاعبي الحالية . كان أبى رئيسا لإيرادات وزارة المالية ، ولقد
أحيل إلى المعاش من زمن طويل ، وصار محتاجا إلى مساعدتى ،
فلم أبخل عليه برأى كله ، وقبلت أن أعيش فردا فى الأسرة ،
لا أمتاز عن سائر الأفراد . ومن مالى علم أخى . . . وكبر
ووظف ، ولكنه أحب ابنة بائع كبد وتزوجها . وامرأتى كما
تعلم ابنة باشا تركى . ومع سعة الفارق بين الزوجين ، تقطاول
بائعة الكبد على ابنة الباشا وتضر بها وتعتدى على أولادى .
والعجيب أن أبى يظاهرها ويؤازرها فى هذا الضلال ، ويعتدى
بنفسه فى كثير من الأحوال على زوجى وأولادى بالضرب
والإهانة ، ويؤثر أبناء أخى بالطيبات ، فإذا اشترى عودين من
القصب أعطى أبناء أخى عودا ونصف وأعطى أبنائى نصف
عود . وهذا على سبيل المثال ، وأخى يأكل هو وزوجه
وأولاده من كدى وتعبى ، وينفق راتبه فى التوسعة على أبنائه
وزوجه فيستمتعون بما حرم على أولادى من الفاكهة والحلوى .

ويغضونهم بهذه الفاكهة المحرمة . فماذا أفعل ؟ انى أثق باصالة رأيك ، وصدق إخلاصك . . إن أبى ليشتمنى بل ويضربنى فى بعض الأحيان . وأنا كما تعلم — لسانى قصير عن رد الإهانة فماذا ترى ؟

وكان محمود مصغيا فى اهتمام محاولا أن يعين صاحبه برأى نافع ان استطاع . فاقترح عليه أن يستقل فى حياته مع زوجته وأولاده ، ويعطى لأبيه مبلغا معلوما فى أول كل شهر ، ولكن المهموم الحزين يرد قائلا : لا أستطيع ذلك وإلا قرأ أبى على الحسبة وسورة (يس) ودعا على فى المساجد ... ولا حد لما يصبنى من البلاء عندئذ . ولكنى أيتها الأخ أتوسل إليك أن تعيننى على العودة إلى القاهرة إذا نقلت منها . فيخجل صاحبه من كبر ما يرجى منه ويحجب : العفو ياسبحس فأنت تعلم أن ليس لى بذلك قبل ، ولكنى أعدك ببذل جهدى إذا صدر أمر بنقلك .

وفى اليوم التالى يقبل على محمود مشرق الوجه ، طلق الأسارير وفى عينه بريق يزدد عجا على الأيام : أتريد أن ترى فتاة اليخت ؟

فتاة اليخت ! أجاب محمود مندهشا فقد بعد عهده بسماع قصة اليخت ولياليه وغلها على ذا كرتة ما تتابع من مغامراته ومقدمات نجاحه .

— نعم فتاة اليخت . لقد قابلتني أمس وأخبرتني أنها
تزوجت في مصر الجديدة .

وافترق الصاحبان على أمل اللقاء عند محطة المترو في الساعة
الرابعة بعد الظهر .

فتاة اليخت ؟ أو بعد أن رأته في ذلك الربيع المتهدم بين
خرائب الحسينية ورأيت أباه عم مسعود الملا ، يعود إلى
حديث اليخوت والقصور ؟ إنه لجرى . حقا ، ومع ذلك فلأتابع
الكاذب إلى آخر الشوط ولن أخسر بذلك شيئا .

وجفأة تجمعت أسارير محمود واستغرق في تفكير قائم .
إنه لم يعد يؤمن باليخت ولياليه ، ولا بالفواتين الأربعين
فماذا حمله على التفكير القائم ، والاستغراق الأليم ؟ وماذا يدور
بخلده بعد أن ودع صاحبه على أمل اللقاء ؟

ماذا حرك أشجانه وقد زعم لنفسه أنها زالت . وماذا يحمله
إذا كان صادقا على التفكير القائم والاستغراق الأليم ؟ اذكره
حديث حسين بهواه ، ونكأ ما التأم من جروحه ، وقديما قال
ابن أبي ربيعة .

وذو الشوق القديم وإن تعزى

مشوق حين يلقى العاشقينا ؟

لا شك أن اللقاء حسين وحديثه يدا في تحريك هذا
الشجن . ولكن لا شك أيضا في أن محمودا كان يخدع نفسه بما

كتب في مفكرته . فانه لم يستطع ولن يستطيع مهما حاول أن ينسى يوم ٥ يونيه . لن ينسى تلك اللحظة في الأصيل حوالى الساعة السادسة مساء حين قصد إلى مصر الجديدة ليرى كيف أجابت سونة في بعض مواد الامتحان ، فقبل مقابلة فاترة من أخيها الدكتور ، ولم ير لفتاته أثرا ولا جرى بذكر اسمها لسان الدكتور الشاب ، فلما حشد محمود أشتات شجاعته وجازف بقوله : كيف أجابت سونة في الانجليزية ؟ جوزى على هذا العناء خير الجزاء . إذا ناداها أخوها وطلب إليها أن تأتى بورقة الامتحان ، وتمضى دقائق دون أن تقبل . . . ثم تدخل خادم سوداء قصيرة وفي يدها ورقة الامتحان قائلة . . . ستي بتقول آدى ورقة الأسئلة .

فينبرى الأخ الكريم للخادم سائلا . ولم اذا لم تأتى سونة ؟ . . . فتجيبه الخادم السوداء : حضرتها بتقول الأستاذ عايز يطلع على ورقة الأسئلة فوديها له .

انها اذن الملوثة على هذه الصدمة وليس أخوها كما قد خطر له أول الأمر . لماذا وكيف وهل ؟ . . . آلاف من الأسئلة تابعت على ذهنه دون أن يهتدى الى جواب واحد منها . . . وانك لتراه خارجا من ذلك المنزل الذى اعتاد ان يخرج منه متطلقا مستبشرا فيقول لك ما يبدو عليه من ألم موجع ، وكأنما انطوت أضلاعه على شيء فارقه الروح وعزير عليه أن يسلم

الموت ذلك الكائن الذى كان منذ ساعة حيا نابضا خافقاً .

وحاول صاحب العزم الصارم والرأى الحازم أن يغالط نفسه ويستشعر وهو يسير شيئاً من الثقة بالنفس والشعور بالشخصية ، فقد استطاع أن يحمل جسمه وينقل به حيثما يشاء من غير هذه القوة التى كانت تدب فى أحشائه ، ويحسبها مصدر الحياة والنشاط . ويمضى يوم ولكنه لا يلبث أن يشعر بالمرض والفتور فيستأذن فى أجازة يقضيها فى بلدته وفى بلدته أنفق يوميه فى ضحك وصخب مع أصدقائه القدماء . . . وخيل إليه فى بعض اللحظات ما خيل إليه فى أول عهدنا به فى هذه القصة ، أنه رجل حازم صارم ، أبى على الذلة منيع على الامتهان . . . هو العنقاء تكبر أن تصادا .

وهل كان يتردد على هذه الأسرة الا عطفاً وحباً فجوزى .
جزاء سنار ، اهمالا وازدراء . . . وهذا جزاء صانع المعروف فى غير أهله .

هذه الأسرة كانت فعلاً فى حاجة الى عطف ذلك الشاب وحده ، فقد أراح إيرادها القليل من نفقات المدرس ، وأعانها فى دراستها اعانة صادقة ، وأنه لا يزال يحن الى يوم تعرف بهذه الأسرة فى بلدته اذ كان رب الأسرة (محمد بك شوقى) مأموراً لبلدتهم من أعمال الغربية وكان الطبيب الشاب طالباً

بالمدرسة الثانوية، فلما تخلف في بعض الامتحانات اختاروا
للهذا كرة معه أذكى التلاميذ عقلا وأكرمهم خلقا وأصفاهم
نفسا... اختاروا ذلك التلميذ اليتيم الممتاز، فما هو الا شهر حتى
تفوق المتخلف ونجح في دراسته. ولم يفترقا الا بعد أن حصلوا
على البكالوريا، واتجه أحدهما الى الطب والآخر الى الآداب.
وكانت السيدة شديدة العطف على محمود كلما تردد على منزل
المأمور رحمة الله عليه، وكانت سونة حينذاك في العاشرة من
عمرها. ولم يلتقيا الا بعد سبع سنين على نحو ما رأينا بعد أن
مات شوقي بك... وصارت سونة يتيمة. قليلة الإيراد.



عزم محمود إذن على القطيعة، وألا يترك كرامته تهدر على
هذا النحو. لا بل يجب أن يعلن اليها هذه القطيعة، مشفوعة بما
يشعر نحوها من ازدراء واحتقار.

(أختي العزيزة) هكذا بدأ خطابه ثم اعتمد برأسه على يده
اليسرى... فقد بطل الطبل الأجوف والمرح المتكلف، بعد إذ
أصغيا في رفق واشفاق لذلك اللحن الدقيق العميق، الذي انبعث
من أغوار النفس، فجاشت به وأسلته قيادها... وعشنا حاول
صاحبنا المغوار أن يغرق تلك النغمات الدقيقة الرقيقة، الرزينة
الحزينة، في لجاجة من الطبل والزمر، والضحك والتهريج،
فما وفق إلى ما يريد... فهاهما هاتان دمعتان... تسيلان من

عينه الزرقاء الحزينة ... قبلان الخطاب — وتفسدان الورق
ولم يسلم من ندم على تلك الدموع تفيض أسى على من
لا يستحق الأسى ولا يستأهل الأسف، ولكنه عاد فأدرك
أن هذا الحزن ليس لها، بل لكرامة أهدرت، ومعروف
أنكر... ويحشد من جديد أشات شجاعته ويكمل الخطاب
على أكمل ما يتمنى من بلاغة وفصاحة وقوة منطق وقسوة
رجولة .

ولكن هل هي تستحق كل هذا العناء ؟ وهم بالخطاب
يمزقه ، ولكنه لم ينتجز عزمه فألقى به في زاوية من زوايا مكتبه
ثم يرى أن الوحدة قاتلة فيندمج في الناس ويسرف في
الاندماج ، ويسرف على نفسه في الضحك والصخب ، حتى لقد
بدهه زميل غير حصيف بقوله : أنت الآن أسعد الناس طرا
فما هذا السرور وما سره ؟

وبينما هو يغالط حسه ، ويغالب نفسه، ويضحك ويصخب،
ثم تحول ضحكته إلى ابتسامة باهتة ، وأشبه بحزن سالب موجه ،
إذ مات حسين فحزن وألم وجزع ، وليس بعيدا أنه كان يبكي
- على ليلاه فيما كان يبكي ، إذ يقترح عليه صاحبه أن يذهب إلى
مصر الجديدة لزيارة خليلته فمن تكون هذه الخليفة في مصر
الجديدة . ؟

لقد كانت الفترة التي مرت بين فراقهما على موعد اللقاء

وبين هذا اللقاء دهورا وآمادا كما أحسها محمود، وإن كانت ساعتين لا أكثر بحساب الزمن المألوف. وعلى محطة المترو التقى الصاحبان وانزلق هذا السؤال من فم محمود. وأين تسكن فتاة اليخت من مصر الجديدة؟ - قرب المطار.

وكانت إجابة رهيبة وجم لها محمود، ولم يستطع بعدها أن يحشد ذلول شجاعته لسؤال جديد... فاتها سونة ولا ريب ومضت بهما المركبة ليرى الشاعر العاشق مصيره الأليم... من عسى أن تكون فتاة اليخت غير فتاة أحلامه؟ لقد سبقت لحسين مغامرة معها حينما كان محمود في زيارتها بعد غيبة سبع سنين، ولقد طرد حسين على نحو ما رأيت. ولكن ما ذا يمنع أن يكون قد عاود المحاولة ونجح آخر الأمر؟ فقد كان قلب الأم جانحا إليه، عطوفا عليه، فإن حديث الثروة الواسعة يسحر قلوب النساء. ولكن من المسئول عن الكارثة؟ هي أم هو أم هذان الظاهران الغردان في منزل ذلك الأديب الكبير بالصاحبة الجيالة؟ أنهما سر إحجامه عن الزواج وبالتالي سر هذه الكارثة، سر انصرافها عنه إلى حسين.

وصل الترام إلى مصر الجديدة وهبط الصاحبان وسارا في اتجاه المطار، وكلما اقتربا من ذلك الشارع الذي كان يجمع إليه الشاعر العاشق... تثقل خطاه وتتعثر.

هذا منزلها قد بدا للعيان ، بلونه الأحمر البهيج ، والصاحبان يسيران ، وقد ينس محمود من شجاعته وحزمه وعزمه ، وسار الى مصيره المحتوم . لقد وقف عقله عن التفكير وقلبه عن الحركة ، وسار مع صديقه العتيّ الجبار .

ها هما هذان قد تجاوزا دور الخطر ومرا الى الشارع الذى يلى شارع سونة ، فانظر أى تغيير بدا على هذا الشاعر الذى كاد منذ لحظة يموت هما وكمدا ، دون أن يلوم أحدا الا هذين الطائرين الغردين .

انه قد استفاق من غشيته ، وبرىء من شكه وندمه ، فبدأ يداعب صاحبه العتيّ الجبار . . . وسأله عن البيخت وفتاة البيخت .

فلما وصلا الى منزل نخم ذى أربعة طوابق ، وله حديقة جميلة ، ومن عليائه كانت الشمس تودع الناس والأشياء ، أشار حسين بأصبعه الضخم الغليظ الى نافذة موصدة وقال . سوء حظ . النافذة موصدة

— وما معنى هذا . أتتوى أن تدخل من النافذة .

— لا . انه رمز بيننا اذا كانت النافذة موصدة دل ذلك على وجود زوجها .

ولكن النخس ما لبث أن زال وفتحت النافذة على مصراعها .

— هيا بنا يا صاح . لقد فتحت النافذة .

— انتظر ريثما يخرج زوجها . أتريد ان يقابلنا على الدرج ؟

— مضت الآن خمس دقائق . وهى تكفى لنزول الزوج وانصرافه .

— لا تتعجل الطبيبات فالدنيا لم تبين فى يوم واحد ...
هلم الى بائع السجائر فهو واسطة الخير .

وكان النحس بالمرصاد فما هو ذا أصبعه الغليظ يشير الى
دكان موصد وهو يقول . سوء حظ . المحل مقفول .

ثم تجول الصاحبان شيئاً فى الصحراء بين الأحباء والأخلاء ،
والرمال والصخور ، وعادا ليجدا دكان السجائر مفتوحا . فقال
محمود . فرجت فاجابه حسين بعد أن نظر الى داخل المحل ...
فرجت ؟ أنه الصبي وسر هذه العلاقة مع المعلم وحده .

وهكذا أقام حسين الدنيا وأقعدھا ، وأثار من أشجان
صاحبه وآلامه ما لا يستحق ... فأى مغامرة وأى غرام
وأى يخت ... لهذا الرجل الذى يسير منتفخا يشير بين الحين
والحين اشارات مضحكة بأصبعه الغليظ ، ثم يعود بالمترو وقد
تفصّد العرق من جبينه ، من طول ما جازف وغامر .

* * *

ولسنا بحاجة الى أن نذكر أن محموداً لم يكن متلهفاً على
فتاة اليخت ، فقد كفر باليخت ولياليه والفواتين الأربعين
ولكن لحظة براءة سونة بما خشيه عليها ... كانت لحظة سعيدة
من لحظات الحياة ، تستحق أن يعمرها المرح والسرور ، والفكاهة
والدعابة .

الفصل العاشر

حيرة الشاعر

أمن محمود واطمأن ولكنه عرف في نفسه شيئاً لم يكن
يقدر مداه ، وتبين من حقائق نفسه بعض ما لم يكن يعلم .
أرأيت إلى الصدمة الكبرى التي زال أثرها نهائياً ؟

لقد زال ما أخلفته من غضب لكن لم يزل ما أخلفته
من حزن وحنين ، وأيقن الشاعر أنه محب ، وأن الحب أطول
أمداً من الغضب ، ذلك أن حنيننا هزيباً عاوده ثم لم يلبث أن
اشتد وتمكن . وكان قادراً في بعض الأحيان على مغالبتة
ومغالطته ولكنه عجز عن ذلك منذ جولته مع حسين في
مصر الجديدة . فقد حركت هذه الجولة حنينه وحيرته ،
وشكوكه وغيرته . فثار شعوره المكبوت كما يثور البركان .
فإذا بشاعرنا موله معمود ، على نحو كان يعيبه على الشعراء
المجانين . . .

وهذان العصفوران الغردان اللذان كانا مصدر وحيه ،
لم يعد لصوتهما أثر في مسمعه وخاطره . فكفريهما وبما
أوحيا . وهكذا نرى خاطراً عزيزاً يهون ، وتصميماً أكيدا

يتزلزل ، وصاحب عزم ومضاء يغدو ريشة في مهب الريح ..
لا حول له ولا قوة .

« ترى لو كان ما خشيته اليوم حقاً فماذا كنت أفعل ؟ —
كنت بلا شك أختصر المسافة في عودتي من مصر الجديدة
لأخذ العباسية محلاً مختاراً . ومن أجل ماذا احتمل هذا العناء ؟
من أجل الفن ؟ سبحانك يا فن ! ، وأى فن يرجي من نزيل
العباسية ؟ . . . وداعاً أيها العصفوران الغردان وداعاً . .
سأستبدل بكما عصفوراً أحلى منكما في مسمعى صوتاً وأغريداً ،
وأطير معه في السماء الشاه . ولا نعود إلى الأرض أبداً . .

ولكنه لم يكد يصل إلى الفندق ويشتمل عليه سريره ، حتى
يسأل نفسه في صراحة : هل تعتقد أنها تحبك كما تحبها ؟ ولم
يستطع شاعرنا الصريح أن يجيب على هذا السؤال بسرعة .
فإنها لا شك قد جاملته وأعجبت بشعره ، وكانت تستمع إليه
بقلبها وأذنها ... كل هذا لا ريب فيه . ولكن مجالى الحب ومظاهر
الهيام : الاندفاع ، والمخاطرة ، والتضحية ، والارتقاء في الأحضان
والدموع ... أين منها كل هذا ؟

أين منها ما نطالع في الروايات ونشهد على الشاشة
اليضاء ؟ ...

ثم زاد تجهمه وحيرته حين ذكر موقفها منه حين دعاها
أخوها إلى لقائه وامتنعت ... فأين هذا من مواقف العشاق

والمحبين ؟ أن هؤلاء لا تعوزهم الحيلة ولا تعيهم الوسيلة . .
كن شجاعا وقلها قولة صادقة صريحة : « هي لا تحبك » .

وهنا أحس بحسرة في فؤاده ، ولذعة في كبده ، وظلمة تغشى
جوانب نفسه ... ولكن هذه الحال السيئة لم تطل لحسن الحظ ،
فقد ذكر قصة كان قد قرأها عن فتاة هجرها خطيبها لأنها لم
تبد عليها (أعراض الحب) المألوفة . . وبعد عذاب مرير ،
وخطأ كثير ، تبين له أنها عميقة الهوى ، صادقة الشعور ، فعاد
إليها وتزوجها . ونعم بعشيقه مخلصه ، قلما جاد الزمان بمثلا .
والغريب أن فتاة القصة كانت أشبه سونه ، حتى في الشكل
والهيئة ... فالى جانب اتفاقهما في هدوء الطبع ، والتحفظ في إبداء
العاطفة ، فإن كليهما زرقاء العينين ، أسيلة الوجه ، باسممة الشفر
في لقاء الناس ، حتى ليحار صاحبها في ابتسامتها ولا يدعى ..
ألها دلالة خاصة ، أم هي سمة الوداعة وكرم الاستقبال ؟

وقد عللت كاتبة القصة موقف فتاتها بأن تواضعها وظرفها
حملها على أن تتحرز من أن تبدو عاشقة ، ونجحت في ذلك
إلى درجة حجبت حبها عن خطيبها أيضا ... فكانت الكارثة . .

« فما أشبه موقفنا بموقف هذا الفتى وهذه الفتاة . . وقد
وضع أن الفتاة مدلهة حبا وهياما بفتاها . . فلماذا لا تكون
سوفه كذلك ؟

« ولكن اتخدع نفسك ؟ هل فيك ما يحب ويعشق
يا أبا حنف ؟

« إنك لا وسيم ولا قسيم . ولا صاحب لباقة ولا أخو
أناقة . فأنت مجرد من كل ما تصبو إليه قلوب العذارى ... ثم
هرع إلى المرأة ليختبر شكله فيها ، أعوذ بالله ! ! خست
من عاشق . ما هذا الشعر في وجهك ؟ لكأنى أرى رجلا
من الأدغال . .

هل كان بطل القصة هكذا ؟ أبدا ... لقد كان جميلا لبقا ،
أنيقا ، بارع الحديث . لعنة الله على هذه الذقن . أما آن لى
أن أحلقها بعد هذا الإهمال الطويل ؟
وسرعان ما أعد عدته ، وبدأ حلاقة ذقنه وكانت الساعة
الثانية صباحا .

ولما انتهى من مهمته ، رأى نفسه في المرأة ، رجلا عاديا
لاوحش من الأدغال . صحيح أن كثرة القلق والأرق ، والبعاد
والسهاد قد أخلفت بعض الشحوب في وجهه ، فلم يبد كما كان
أبيض البشرة . . وبدأ أكثر نحولا مما كان . ولكن نظرته
الحزينة العميقة ، الواشية بالهم الموجه ، والآم المديد كان
فيهما سحر الألم ، وجمال الحزن .

الفصل الحادى عشر

فكرة

لم يكن قد بقى من الليل إلا أقله حين بدأ محمود يفكر فى الخطوة التالية . فهو قد فرغ من أنه يريد الزواج ، ويريد أن يتقدم إلى أسرة سوته . ولكنه ، كما رأينا كثيراً ، يستحى أن يذهب بشخصه لإعلان هذه الرغبة . فانه يجهل الأحاديث التقليدية فى مثل هذا الموقف . ولا يتصور أنه يحتمل أن يسمع كلمة الرفض ، أو المماحكة السقيمة التى تعنى الرفض . ولكن هناك صعوبة أخرى ، ذلك أنه كان يحرص على أن يبدى أن زيارته لمنزل هذه الأسرة ، إن هى إلا تحية وفاء لود سلف ، وأيام خلت .

وأن الفتاة ليست هى المقصودة بهذه الزيارات . فكيف يستطيع أن يطلب يدها دون أن يُفهم ما يضمّر ، ويعرف ما يخفى ؟

فى هذه اللحظة سمع صوتاً ينبعث فى سكون الليل ، فى نغمة رخيمة رخية ، يقول : (الصلاة خير من النوم) .

فأمّن على قوله ، وتوضأ وصلى ، ورأى ضوء الفجر قد لاح

من بعيد ، كأنه الأمل بعد طول اليأس . . . وصلى بين أنسام
السحر ، وبواكير النور ، وأنفاس المدينة التي بدأت تستيقظ
بعد طول هجوع .

وبينما هو مائل للصلاة بين يدي الله . إذ تراءى له الطيف
الباسم ، فزاده حمداً وشكراً . . . وما كاد يتم صلاته حتى تناول
قلماً وورقاً ، وبدأ يحرق خطاباً إلى أخيها الدكتور ، ثم وضع
الخطاب في المظروف حتى يستطيع أن يضيف إلى ما كتب ،
ما قد يترامى له بعد ذلك .

ثم أوى إلى سريره فأخذته سنة من نوم ، حظى فيها بأكثر
من نصيب الهائم الحالم . لقد عاوده الطيف الباسم فقبله قبله
حارة محتمة . . . ما أحلاها !

أما خطابه الذي ظل مفتوحاً أثناء نومه ، فانك لتعجب
من إيجازه ، ولكن هذا الإيجاز يمكننا من قراءته عدة مرات
قبل أن يصحو صاحبنا من حلمه الممتع الجميل . انك لا تقرأ
بالخطاب على كبر رقعته إلا هذه الكلمات .

أخي الدكتور . . تحية وسلاماً . . أتقدم اليكم برجاء
حسام خجلت أن أفضى به اليكم مشافهة ، طامعاً في الرد إذا
قبل ، والسكوت عن الرد إذا رفض . والآن على أن أستجمع
أشتات شجاعتي لا قول : إني أطلب يد شقيقتكم سونه . واني
أهتئها بالنجاح في الامتحان ، وأرجو أن يؤخذ رأيها فما

طلبت . . . لأنه موضوعها أولاً وأخيراً ، المخلص
محمود حلى

ولا يطول نومه ، فقد قرع عامل الفندق باب غرفته بعد
ساعتين هاتفا : « الساعة سبعة ونص يا أستاذ اصحى ، فاستيقظ
من أحلامه ولصق المظروف ، وذهب إلى الوزارة ، دون أن
ينسى — على كثرة نسيانه — أن يلقي بالخطاب فى أقرب
صندوق للبريد .

وما يكاد يصل إلى مكتبه — وهو الآن رئيس قلم كما وعده
المدير فى ندوة الأديب الكبير — حتى يرى حسينا فى بذلته
الرمادية العتيقة ونظراته ذات الوميض العجيب . . وقد بدا عليه
من الورع والتقوى ما حبيه إلى نفس محمود وقربه الى قلبه :
صباح الخير يا أستاذ حسين .

— صباح الخير يا بك . . وبعد لثم يده — كالعادة —
و . لا . لا . أستغفر الله ، فى ابتسام ساخر كالعادة أيضا ،
قال حسين :

— أتعلم أن الوزارة تعد حركة تنقلات . وخدامك
حسين قلبه يرتجف ؟

— لا أظن أن هناك مبرراً للارتجاف ، فان المدير
والمراقب العام يجبانك ، وقد نسيا كل ما يتعلق بالمسألة إياها
هل حضرتك متأكد من هذا ؟

— جدا .

- ولكن المدير لا يلقاني بما عودني من البشاشة . فهل
تسمح أن تصحبنى إليه ، لا كرر له الاعتذار وأؤكد له حبي
وعرفاني بالجميل .

- لا مانع طبعاً . هيا بنا إذا شئت .

ودخل الصديقان ، محمود بطريقته السريعة وتحيته القصيرة
الباسمة ، وحسين بطريقته التى وصفها المدير يوم أغمى عليه ،
من أثر الثورة التى تتكرر مرة كل سبع سنين .

وقد طلب من المدير الصفح والمغفرة وهمّ بلثم قدمه ، فأكد
له المدير أن المسألة قد انتهت من زمن ، وأنه لا يشك فى طيبة
قلبه وسلامة نيته ، فلم يفت حسينا أن يقول بالانجليزية (الخطأ
من صفات الانسان ، والعفو شيمة الرحمن) .

وقال حسين لصاحبه بعد إذ عادا إلى مكتبه : الآن اطمأن
قلبي وهدأت نفسي ، وانى أحمد الله أن فراستى لم تخطئ . فقد
وثقت بك منذ لقيتك ، واطمأنت نفسي اليك .

- القلوب عند بعضها يا سحس .

- إني لأرجو الله أن أتمكن من خدمتك ورد جميلك .
أنك أول موظف أراه ، يعمل على تأليف القلوب .. وكلما
رأى نارا صب عليها ماء ... لا (بنزين) .

ولكن ذكر البنزين لم يعد به الى حديث السيارات
والطيارات .. لحسن الحظ .

الفصل الثاني عشر

ما ذا في الأمر

مضت خمسة أيام دون أن يصل رد ما . ومعنى هذا السكوت أن الطلب رفض ، ولكن الأمل يبقى مابقيت الحياة ، ففي كل يوم يسأل الساعي وكان أسود خفيف الظل .

— أليس لي خطابات يا عم عثمان ؟

— لا أنت مش بيبيعت جوابات ، فش حييجي جوابات فضاق شاعرنا بالحياة والأحياء ... وأظلمت في عينه الدنيا .. ولم يعد قادرا ، كما كان حين تعتوره أزمة نفسية ، على الاندماج في الناس ، وتلبس السلوى من الضحك والمسامرة . لقد ضاق حتى بالضحك والمسامرة ، وبالأصدقاء والندماء . وعجب عامل الفندق من كثرة اعتكافه ، وصدوفه عن الناس ، وراعه أن يرى الوسادة كل صباح مخضله بدمعه .

وفي اليوم السادس دخل عليه حسين في مكتبه ، وقال له في لهجة الاخوة والإخلاص : يا محمود ، مالك تبدو في هذه الأيام متعباً مكدوداً ؟ انى أرجوك أن تفضى بسر هذا الأسى والشجن ، عسى أن أستطيع أن أرفه عنك وأشاركك الشعور والتفكير ، وانك لتذكر أنى أفضى إليك بأسرارى التى

حبستها عن أقرب الأهل وأقدم الصحاب . أنا غير فضولى
مع ذلك ، ولكنى أحب أن أقول لك إن قلبى وجهدى ومالى
تحت أمرك .

وكان محمود مطرقاً طول هذه المدة ، وفى رأسه دوار شديد
فقال لصاحبه :

- كل ما أحججه الآن قرص اسبيرين .

- أتعنى أن حديثى صدعك .

- كلا إنه أول حديث أنست إليه فى وحدتى ووحشتى
ولكنى لم أنم عدة ليال متعاقبة .
- لماذا ؟ خيراً إن شاء الله .

وخرج أيام الساعى بشراء قرص اسبيرين لسعادة الرئيس
وفى هذه اللحظة كان محمود حائراً ، أيتكلم أم يسكت .
لقد طال عهده بالسكوت والكتمان حتى كاد ينفجر ، ولم يكن
يرجو خيراً كثيراً من قلب حسين أو جهده أو ماله ، ولكنه
رأى أن فى الإفضاء تنفيساً عن ألمه وحزنه ، ومشاركة فى
الرأى قد تعين على الاحتمال ، أو إصلاح الحال .. خاصة وأن
حسيناً رجل مجرب .

قص قصته على صاحبه فى شجاعة وتجلد ، وحاول بادية
الامر أن يخفى العنوان واسم الأسيرة ولكن حسيناً قال

بضرورة معرفتهما كي يستطيع أن يكون رأيا صحيحا في الموقف، فأجيب إلى ما طلب .

— أوه انى أعرفها ، ولقد لعبت معها دورا كبيرا ، وكانت تحاول أن تتصبانى ، ولكن هيهات ؛ فسأله محمود والدم يغلى فى عروقه ، وإن كان قد أورى سكينه فى صدره كما يقولون ، وتظاهر بعدم الاكتراث ، ومن أين عرفتها ؟
— انها قريبة فىنى فتاة اليخت .

— ولماذا لم تتزوجها ؟

— لآنى لم ولن أتزوج أبدا ، فأنا كما تعلم ... لا أهتم بالغيد الفواتين ، ولكنى أولع بالصديات فى سن محكمة الجنايات .
وما هى آخر مرة قابلتها فيها ... فحسب وجمع وطرح ، ثم قال : فى (٥) ابريل ... وكان محمود لا يفسى هذا التاريخ أبدا .. فهو يوم تجديد علاقته بهذه الأسرة ، فهمس فى أذن خاطره : اطمئن ... لقد تمخض الجبل .

ولكنه همس فى أذن حسين : صف لى كيف كان لقاء
٥ ابريل :

لقد قابلتنى الفتاة فى ثوب أبيض شفاف ، وتركتنا أمها متشاعلة ببعض أعمال المنزل .. وقد طلبت منى الفتاة أن أتزوجها ، فاعتذرت فى أدب ، ولكنها ثارت وطردهتنى من المنزل .. انها مجنونة لا ريب .

— أنا لا أسمح لك بأن تتهمها بالجنون .. وأرى أنك
لا تتحدث بما كان في (٥) إبريل .. بل بما تعود الناس في إبريل
من الكذب والبهتان .
لقد كنت معها يوم (٥) إبريل يوم طردوك .. وقد
جئت خاطباً .. فامتقع لون حسين وقال له محمود ضاحكاً :
« انكشفت ياسحسين ، ميجيش منه » .

الفصل الثالث عشر

من مصدر وثيق

وفي اليوم التالي أقبل حسين على محمود وقال : «سأفاجئك
مفاجأة سارة . فماذا عسى أن تكون ، ؟
فخطر في ذهنه أن مشروعه قد نجح .

ولكنه ما لبث أن ذكر ما تعودده من حسين ومفاجأته :
جبل يتمخض دائما عن فار ، فقال لحسين مفضبا :
— ليس لي أعصاب تحتل المفاجأة أو التخمين ، تكلم
ولا تفلتنى .

— لقد فلقتى أنت طويلا بتجهمك ، فهلا سمحت لي
بمضايقتك قليلا قبل أن يزول تجهمك ؟
— ماذا تقول ؟

— أقول خمن . ما هي مفاجأة اليوم ؟
— بأبيك يا حسين إلا ذكرتها دون أن تربك عني ،
فهو لا يحتمل ارتباكا جديدا .

— إذن ما هو ذا خطابك الذي أرسلته إلى الدكتور .
— وأين وجدته ؟

- أين وجدته ؟ فى صندوق البريد .
- تكلم وابن فانها مفاجأة كبرى حقا .
- ذهبت إلى بواب العمارة ، وحيثه وجلست إليه ،
وأفهمته أنى أقمت طويلا بالنوبة عند ما كان أبى مأمورا المركز
الدر ، كلمته بلهجة نوبية فأحببني ووثق بي ، ثم سأله عن
الدكتور ، فذكر لى أنه سافر إلى الاسكندرية مع الأسرة
جميعها ، بعد أن انتهى امتحان ست سونه بيومين ، فسأله :
« وماذا تفعل بخطابات الدكتور ؟ فقال :
أخذها من ساعى البريد ، وأحولها إلى الاسكندرية .
والدكتور خطاباته قليلة أوى .
- يعنى آخر جواب وصل إمتى ؟
- من عشرة أيام تقريبا .
- إنى أرسلت إليه خطابا من منذ خمسة أيام . . فأين
هو إذن ؟
- لا أدرى .
- أليس هنا فى العمارة صناديق بريد ؟ فلعل ساعى البريد
لم يجدك يوما فوضع الخطاب فيه .
- وكان رأيي سديدا . . لقد وجدنا الصندوق مفتوحا وهذا
الخطاب به .
- لقد آمنت ببراعتك يا حسين .

— أنا خدامك ومحسوبك يا سعادة البك
وهناك أخبار أخرى فهل أنت مستعد لاستقبالها
— قل قل باركك الله
— لما أخذت الخطاب سألت البواب عن الدكتور
وسونه وأحوالهما .. وذكرك لي أن نجاحها يرجع الفضل فيه
إلى واحد أفندى كويس أوى ، فقلت :
محمود أفندى ؟ فسألني فرحا : أو تعرفه ؟ قلت : جدا .
قال : تسمع تقول له « محمد بن البواب يبسم عليك كثير
وعايز يشوفك ضرورى ضرورى ولو كان يعرف عنوانك
كان فات يبسم عليك ، .
— وما رأيك ؟
— رأيي أن تمر عليه فاني أقرأ في عينه سرا . ولا تتكبر
عن مجالسته فاني أخاله مفتاح القضية .
— سأمر عليه ... فقد آمنت ببركة عم محمد بن .
ولم يكذب محمود خبرا ... فما كاد ينتهي موعد العمل ، حتى
هرع إلى مصر الجديدة ، وأعجبه سرعة المترو فقد ذهب الأرض
في مدة وجيزة . وسرعان ما كان أمام عم محمد بن يحياه والبواب
يزد على تحيته بأحسن منها .
ثم دخل البواب حجرته ، وعاد وفي يده عدة كتب سلمها
إليه قائلا : ست سونه قبل أن تسافر تركت لك هذه الكتب

لأنها لا تعرف عنوانك بالضبط ، وشدت على أن أسلمها لك يدا بيد . ولو كنت أعرف عنوان سعادتك كنت جيت سلمتها لك .

- حصل خير . أنا متشكر جدا يا عم محمدين ، وأعطاه قطعة من ذوات العشرة قروش ، قهله وجه عم محمدين ودعا الله أن يوفق (محمود بك) ويكتب له السعادة والهناء .

وما يكاد يمضي في الطريق بضع خطوات حتى يقلب كتبه كتابا كتابا فلا يجد في داخلها شيئا . فيقفها ، ويجلس في الترام . . ثم يعيد التقلب . . وبخفة يجد في جيب أحد الكتب ، وكان مخصصا لوضع خريطة جغرافية . خطابا . . من سونه . . باركك الله يا حسين .

نشر الخطاب وبدأ قراءته في الترام :

أخي محمود :

يعز علي أن أضطر إلى السفر إلى الاسكندرية دون أن ألقاك ، وإنى لأعتقد أن الاسكندرية بمباهجها ، لاتعدل جلسة واحدة معك ، وأن سحر السماء والماء سيزيد شوقي إلى شعرك البارع في وصف السماء والماء ، وانك لتعجب من غير شك لتركي هذا الخطاب على هذا النحو ، ولكن الحقيقة إنى أبرح هذه المدينة دون أن أستطيع معرفة عنوانك بالدقة ، فكل ما أعرفه أنك في وزارة الأوقاف ، وهذا عنوان لا يكفل

وصول الخطاب إليك ، وإني أحس أنك عاتب عليّ ، ولكن
ستصفح من غير شك إذا عرفت كل الظروف ، وستعرفها
إذا أجبت رجائي بزيارتنا بالاسكندرية ، كن واثقا من
إخلاصى كل الثقة ، وأن قلبى ليدمى ويتمزق كلما ذكرت أنك
خرجت من منزلنا غاضبا ، وإنى أطللت من النافذة ورأيتك
على هذه الحال فمنعنى من أن أتبعك أو أناديك ، ما منعنى من
لقائك بالمنزل .. مرة أخرى ... كن واثقا بى ولن تندم على
ذلك ، وموعدا (كليوباترا — شارع كذا — رقم كذا)
أختك المخلصة : سونه

قرأ محمود هذا الخطاب مرات ومرات، حتى وصل المترو
الى نهايته بالقاهرة، فنزل وهو لا يدري أين يذهب .. لقد سار
وسار وسار، دون أن يستقر فى مكان . فان كل هذا السرور
لا يسعه مكان واحد .. فهو يجول به فى كل مكان .

ان هذا الشاب الذى ذاق الألم والحزن ، والحيرة
والارتباك ، يذوق اليوم نشوة النعيم . إنك اذا نظرت الى
وجهه طليقا بعد عبوس ، متهللا بعد تجهم ، وإلى عينيه باسنتين
بعد طول إدماع .. لا تملك إلا أن تحمد للدهر صنيعه .. إنه
الآن يرى كل شىء جميلا .. وكل من يلقى من أصدقائه ظريفا
عاد الى الفندق بعد طول تجوال .. فابتسم له عامل
الفندق قائلا :

— إزى الحال ؟

فأجابه — حال بمب .. وضحك وناولته شيئاً فقال العامل :
مرسى أوى . أنا والله كل يوم كنت أغير لسعادتك بياضة
المخدة .. فالحمد لله

ويذرع صاحبنا الحجرة ذهاباً وإياباً ، وهو يفكر فى السفر
إلى الاسكندرية

— السلام عليكم يا محمود بك

— أهلاً حسين ، . لازم أبوس إيدك النهارده ..

فتمنع حسين . . وقال هو هذه المرة : استغفر الله . .

ولكن محموداً انحنى على يده حتى قبلها

سأقص عليك ما حدث

واستمع حسين الى القصة مغتبطاً مسروراً ثم قال : أظنك

الآن تثق بخدامك حسين

— كل الثقة : انه دين فادخ على يا حسين .

— كلا فان أفضالك علينا كثيرة . وماذا تنوى أن تفعل .

— أذهب الى الاسكندرية بأول قطار وأكتب لك خطاب

اعتذار تسلمه إلى المدير

— بكل ممنونة

— ألف شكر يا حسين

وسرعان ما كتب خطاب الاعتذار وأعد حقيبته ..

ومضى القطار به الى الاسكندرية وفي المساء نراه وإياها
يتمشيان على الكورنيش . . فلا تكاد تصدق ان هذا محمود
حلى صاحب الآلام والشكوك . . لكأن لم يذق في الحياة
إلا النعيم المحض والسعادة الخالصة ، وانها لتبدو بابتسامتها
الشاعرة وروحها الحلوة أسعد ما تكون الفتاة نعيما وسعادة .

— على فكرة . ماذا كان سبب امتناعك عن التسليم على
يوم الانجليزى ؟

— سبب يطول شرحه وقد زال والله الحد

— هل هناك مانع من ذكره ؟

— كلا . . فى أول هذا العام تقريبا عرض على أخى أن
أتزوج زميلا له . فاعتذرت وقيل انه تزوج بفتاة أخرى
فحمدت الله لأنى أراه سمجا ثقيل الظل . . وفى أوائل يونيه
عاود طلبه وألح وجعل يتوسل ويرسل الشفعاء . فأعلنت
الرفض البات . وقلت بلمهجة شديدة إنى لا أقبل أن أفاتح فى
هذا الموضوع مرة أخرى . وفى اليوم الملعون قال لى أخى :
لماذا ترفضين أتأملين أن تتزوجى خيرا منه ؟

قلت : وأى خير فيه :

قال : دكتور . . وغنى . . وله مركز . . حضرتك فيلسوفة ؟
شاعرة ؟ . . الظاهر ان الشعر أفسد عقلك .

فعلبت انه يشير الى من هو « خير من زميله »

قلت : هذا التهمك والتبكيت لأقبله . انه تليح غير كريم .
وحدث في هذه اللحظة أن جنابك شرفت . وناداني
أخي .. أقدرت الموقف ؟

— قدرته تماما .. لقد كنت حسن الظن بأخيك . اننا
أصدقاء قدماء وما كان يليق به هذا .

— إنه يحبك أيضا ، ويذكر دائما فضلك عليه وعلىنا .
ويتحدث بودك ووفائك .. ولكن حضرته كان (زعلان)
أوى عشان صاحبه . لكن حصلت حكاية جعلته يكره صاحبه
هذا جدا . فهذا الصاحب لما يس قال لأخي : ومن تكون
أختك ؟ .. لقد كنت أنوى أن أتسلى بها يومين .. ثم
أطردوها .. هل هي من مقامى ؟ أنا أستطيع أن أصاهر أ كبر
(باشا) فى البلد . فاجابه أخى بتفلة فى وجهه وصفعة على قفاه .
ولكن بعض الحاضرين — وكانوا أصدقاء الطرفين — أخرجوا
الطبيب النذل من النادى ، وهذه واثارة أخى بقولهم : إنه
سكران .. شرب كثيرا جدا وفقد رشده ، حقت علينا
يادكتور

وعاد أخى الى المنزل نائرا على زميله النذل ، فبدأت نائرتة
فانحنى على يدى وقبلها وقال :

وإنك تعلمين ما لا أعلم . لقد صحت نظرتك وخابت نظرتى .
لقد آمنت بذلك ، ولن أفرض عليك رأيى بعد اليوم . سامحني .

ان الاخلاق أهم من المال والجاه آه ...

وكان الشارع مضاماً أكمل أضامة . والسماء زرقاء صافية ،
يتوسطها البدر أجمل ما يكون ... والموج يصطخب ، ولا
يعرف الهدوء ، كأنه يذود عن المدينة كل ما يعكر الصفو
ويشوب النعيم ..

فقال محمود : ولكنى وجدت هذا الخطاب فى صندوق
بريدكم . وسلمها . خطابته الى أخيها . الذى قرأنا حكايته . فبدأ
فى وجهها وميض ... فاق كل وميض فى الارض أو السماء ،
وميض روح تحقق لها الامل ، وصح الحلم .

— أرسله اليه بقنا ، فقد ذهب فى بعثة مقاومة الماريا
هنا أسبوع

— أنا أيضاً عجبت لأنى لم أجده فى المنزل وقت العشاء .

— وهل تثقين بالنجاح ؟

— على كل حال هو سيرك الأمرنى . وسأفكر هل أنت

تصلح أم لا ؟

وبرغم أن المكان مضام ، وبرغم أنه طريق عام .. فان
سحر ابتسامتها وهى تجيب هذه الإجابة ، قد غلبه على خجله
وحكمته وحذره ، فطبع على فمها قبلة ، فاقت قبلة الحلم ، وقبلة
السينما . انها قبلة الحب الموجب العنيف .. الذى طال عليه

الحرمان والعذاب ... (الآن قد كفر الحب عما أسلف
والآن أستطيع أن أكتب في المفكرة : إن صدمة (ع) يونيو
قد زال أثرها نهائيا) .

وبعد شهر تقريبا تم الخطوبة ، وبصر حسين على أن
يذهب مع محمود إلى الاسكندرية ليشاركه أفراحه كما شاركه
أفراحه : فيرحب به محمود قائلا : انها أقل رد على أكبر جميل .
ونرى الشمل ملتئما في عصر يوم بهيج في منزل قريب من
البحر ، ، وقد أعدت أدوات الشاي .

وانما نعرف معظم الحاضرين ، فهذا سامى بك الأديب
الكبير برأسه الأشيب الجليل ، وذاك سمير بك التابعى صهره
اللبق ، وإلى جانبه حسين ، فالدكتور شوقي وإلى يساره
طبيب خفيف الظل ، وسيم طلق المحيا ، قدمه الدكتور شوقي
إلى الحاضرين باسم الدكتور على درويش ، يليه طبيب
غير ظريف .

وكان لاسم الدكتور درويس صلة بذكريات الشاعر .
انه أبو (سوسو) التى رأيناها في الفصل الأول ... وقد
سأله محمود : كيف صحة سوسو ؟

— أوتعرفها؟ — نعم لقد قالت لى ان أباه مولد رجال .
فضحك الحاضرون وأغرقوا .

ودخل محمود يتزود بنظرة من سونه وينال منها قبلته

الثالثة ثم يعود إلى ضيوفه فيسمع حسينا يقول : « وكبير مهندسى شركة الطيران بجنوب أفريقيا سابقا — وعضوا الجمعية البريطانية لعلماء النفس ، وقبطان سابق لأساطيل الولايات المتحدة . . .

لا مؤاخذه يا محمود بك . لقد رأيتك مشغولا فتوليت عنك تقديمي إلى الحاضرين ، وتلك قاعدة متبعة في إنجلترا ، وقد ألم محمود لهذا المظهر ، لا سيما وقد بدأ الأطباء يتهامون (برانويا . . برانويا)^(١) ويتضحكون .

أفمن يكون صاحب الفضل في إنقاذ حبيبين .. يكون نصيبه هكذا .. وارتفع الضحك وكثرت النكات ، فقد رد أحد الحاضرين عليه حين قدم نفسه بقوله : تشرفنا ، ياسى «جيرنج» وأعقبها عاصفة من الضحك لم يبد حسين أى قلق أو اضطراب لحدوثها . ولكن محمودا غلا السم بعروقه فقال محدثا الأطباء :

(أرجوكم يا اخوان أن تراعوا أنه رجل طيب وأنه صاحب فضل خاص على) فسكت الضاحكون .. وفي أثناء سكوتهم قال حسين : —

أليس هذا خيرا من التحدث في سير الناس ؟

فأجاب الجميع ضاحكين : من غير شك .

أما الطبيب غير الظريف فأصر على أن يهمس في أذن

(١) اسم فنى يطلقه الأطباء على مرض عقل خاص

من يجاوره : برانويا - برانويا لا شك .
والدكتور دروبش يرد عليه هامساً : يا أخى العريس
زعل عيب !

وهكذا نرى حسيناً صاحب الكفاءة والمقدرة يبدو
وكان لا كفاءة له ولا مقدرة إلى أن حضر الشاي والحلوى..
فبنت الكفاءة والمقدرة .. فقد ثار هذا الآكل المفوه لنفسه
أيما ثار من غريمة الدكتور الذى كان لا يزال مشغولاً
بملاحظته السخيفة : برانويا برانويا وكان محمود قد غافل
القصوف ودخل ... ليعد الحلوى والشاي .. والله أعلم
بالسرائر .. وإن تكن سريره الآن لا تخفى علينا .. فما هو
ذا مقبل .. وجهه مهلل وعينه تضحكان .. فلا شك أنه ظفر
بقبلة جديدة ... هنيئاً له .

وقد ألقى نظرة على الحاضرين فوجد سامى بك ممتعنا عن
تناول الحلوى لأن طبيبه أمره بذلك .. فقال له الأطباء
الحاضرون : خليها على الله .. الأكل فى ساعة الفرح
لا يضر .

وقد وافقهم على رأيهم وأكل قطعة واحدة من الحلوى .
كذلك اجتزأ سمير بك بقدر يسير .. أما فارس الميدان غير
منزع فكان حسين .. وعهدنا بيطولته فى هذا الميدان غير
بعيد ... يوم خطابه باللغة التى يجيدها ...

وهذا هو الدكتور درويش يهمس في إذن جاره الطبيب
الثرثار : لقد اتهر حسين انشغالك في الكلام والهمس ولم
يبق أمامك شيئا . . واستيقظ هذا الطبيب كأنما من حلم . .
ونظر أمامه فلم يجد شيئا حقيقة . . قالتفت إليه الدكتور
درويش ضاحكا وقال أيكما أعقل من صاحبه إذن . وأبكما
عنده برانويا ؟

وأجاب الطبيب معترفا : « هو أعقل مني بكثير . . وأنا
الذي عنده برانويا لا ريب . . »

وقد سمع الحاضرون هذا الحوار وقهقهوا . . أما حسين
فلم يسمعنا في هذه المرة قهقهته الصاخبة ، بل أرانا بسمته
العريضة ، ذات الوميض الغريب ، التي حيرت محمودا ، ولكنها
لا تخبره الآن :

فهي بسمته النفس الصافية التي لا تضمر السوء ، ولا
تعرف الحقد . بسمته القلب الطيب الذي جهد حتى أسعد
غيره ، ولا يهمه بعد ذلك أسعد هو أم شقى بسمته ما أطهرها
وما أندرها .

ثم انصرف الشاعر عنها إلى ابتسامة عينين أخريين ،
تملان الكون فتنة وسحرا ، وفنا وشعرا ؟